نظرات فى آرنولد توينبى

نظرات في آرنولد توينبي

الدكتور
السيد أمين شلبي

٢٠٠٠م

الناشـــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : نظرات فى أرنولد توينبى

المـــؤلـــف : د. السيد أمين شلبى

رقــم الإيـــداع : ٩٩/١٧٢٥٩

الترقيم الدولى : I S B N

977-303-218-3

تاريخ النشـــر: ٢٠٠٠م

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

النـاشــــــر : **دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع (عبده غريب)**

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون - الدور الأول - شقة ٦

☎ ٢٤٦٢٥٦٢ - فاكس / ٢٤٧٤٠٣٨

التـــــوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ : ١٢٢ (الفجالة)

المـــطـــابـــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

رئيس مجلس الإدارة / **أحمد غريب**

بسم الله الرحمن الرحيم



" كتاب عشته " بقلم دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أراد كاتبه السفير الدكتور السيد أمين شلبى أن أكتب له مقدمة، والمقدمات عادة تكون موجزة، ولكن الكتاب كان حشدا من الموضوعات الهامة والفاصلة. ولم أملك إلا أن أقرأه حرفا حرفا وما وراء الحروف فطالت المقدمة حتى غدت دراسة للكتاب فرضها مستواه الرفيع ... كان الكتاب بدوره سفيرا بين الشرق والغرب.

ما أغلى الكتاب الذى يضيف ويحلق ويطوف دانى القطوف، إنه يطيل العمر بالعرض وليس العمر بالطول إلا إذا كان الطول مشغولا بهدف كبير ... هنا يكون الطول رتبة.

إذا كان العمر منسوجا بفن أو بعلم خيطا خيطا فإنه فى هذه الحالة رتبة إلهية دونها بكثير عروض الدنيا.

العطاء الفنى أو العلمى حياة بعد الحياة... حين تذهب الزيوف، أرقى ما يكون الفن أو العلم حين يتصل بالدين وينبع منه ويؤمن به إيمانا خالصا عميقا فتضىء الروح لأن الدين يرش النور على خطاها فتؤتى أكلها ثمرا مختلفا ألوانه وتكون كشجرة الليمون تحمل فى آن واحد الورق والزهر والثمر.

أتحدث عن كتاب "نظرات فى آرنولد توينبى" الذى كتبه السفير الدكتور السيد أمين شلبى، الذى عاش فى مصر.. أقصد عاش آمالها وعاش أعماقها ... عاش قضاياها .. ثم عاش فى خارجها فطوف وطاف .. وإليها عاد بعد طول المطاف ليكتب تجارب العمر ألوانا من الكتب.

كتب سفيرا عن الدبلوماسية المعاصرة، نظرية وممارسة، وعن حياة وفكر أعلامها.

وكتب باحثًا عن علاقات القوى والنظام الدولى لفترة الحرب الباردة وما بعدها.

سفر لمصر ومثلها فى قارات ونظم مختلفة، وحاضر فى الجامعات والأكاديميات، كاتب موسوعى يحلق فى الآفاق ويمنح من الأعماق ويعطى فى

صمت وسمت العلماء والسفراء وأيضاً الحكماء، وما أعذب الكتابة حين يبلغ الصمت أعلى ذراه.

والمصريون يحبون توينبى لأنه أنصف مصر حضارة وشعبا وعطاء.

المصريون يحبون توينبى لأنه أحد القلائل الذين خلت نفوسهم من العقد ... ذلك أنه عرف الدين، آمن بضرورة الدين للإنسان ودعا قومه من الغربيين إلى العودة إلى واحة الدين بعد أن لفحهم الهجير ولم تغن عنهم التكنولوجيا شيئا بكل إنجازاتها، غرتهم وأغرتهم بالتسلط والاستعلاء والاعتداء فإذا بهم يقتلون أنفسهم قبل الآخرين حين اشعلوا حربين عالميتين فى ربع قرن ضاع فيها الملايين من ابنائهم حين صنع الدين من الصحراء دولة وثقافة وحضارة تفيأت ظلها أوربا نفسها فى الأندلس...

حضارة لم تضن، ولم تمن، ولم تطلق على الذين استقوا منها وتعلموا عليها، (العالم الثالث).

حضارة لم تعرف ترقيم الشعوب وهى التى اخترعت علم الجبر (٧٥٠ - ٨٥٠) ويعرف باسمه العربى فى جميع اللغات ومن اسم مخترعه (محمد بن موسى الخوارزمى اشتق المصطلح المعروف.

"الجوثم" الذى يستخدم بكثرة فى التحليلات العددية. وقد وضع أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى (٨٠١ - ٨٧٠) أسس الرياضيات الحديثة.

ومع هذا لم يرقموا الشعوب.

أما الحضارة المصرية فهى عشق توينبى حتى احتج عليه قوم من الانجليز:

- لقد كتبت عن مصر ستة أضعاف ما كتبت عن انجلترا ... فقال :

- آسف. لقد كان من حق مصر أن أكتب عنها ستين ضعفا بحق الحضارة المصرية على الإنسان فى كل مكان.

أكثيرًا أن يحب المصريون توينبى؟ إن النفس تحب الإنصاف وتتشرف إلى العدل وتهوى النزاهة وتهفو إلى التقدير... ولم يضن به، صادقا، توينبى.

إن أبرز ما يميز توينبى فى هذا الكتاب إيمانه العميق بالله وتعلقه الشديد بالدين.. ورأيه السديد فى فلسفة الحضارات والمقارنات التى يعقدها بين الحضارة الغربية المزهقة بالتكنولوجيا والحضارات التى وقف وراءها الدين سلاما على الأرض وسلاما فى الروح.

لقد واجه توينبى الحضارة الغربية وحللها وحاسبها حسابا عسيرا مما عرضه لحملة من النقد العنيف إلى الحد الذى وصفوه بأنه يبغى زوالها ! كيف وهو ينتمى إليها ؟! اليس انجليزيا؟

لقد أسف لاعتداءاتها على الشعور ونهبها وانتحال إنجازاتها الحضارية والعلمية ثم التعالى عليها بعد هذا !!! بدلا من التعايش معها كما يقول السفير فى علاقة متكافئة.

اقول ماذا لو تعايشت معها فى علاقة ودود شاكرة ذاكرة أنها سبقتها إلى الحضارة، وأعطتها فى عصور مختلفة.. فإن لم يكن هناك شكر الذاكر أو اللاحق للسابق فعلى الأقل، من باب التحسب للمستقبل.. فإذا كانت السيطرة الغربية اليوم قامت على اساس من الزهو بالتقدم المادى والعلمى فإن الحظوظ والمصائر يمكن أن تتغير حين تمتلك هذه الشعوب الوسائل نفسها.. ولذلك يرى توينبى أن من مصلحة الغرب أن يصحح هذه العلاقة اليوم قبل أن يضطر إلى تصحيحها وهو فى موقف ضعيف.

إن العدل "سمة دينية" يأمر بها الله .. ومن هنا ينعى توينبى على الغربيين - وهو غربى ولكنه منصف - ابتعادهم بل استبعادهم "الدين" فى اعتداد بالذهن وحده فاجدبت الروح.

إنه لا يتجاهل بالطبع ميراث الحرية الفكرية الذى خلقته الثورة العلمية وحركة التنوير، ولكنه حاول أن يصوغ تآلفا بين العقل والدين يلائم متطلبات القرن العشرين.

إن أزمة الحضارة الغربية أنهم آمنوا بوجهة نظر "جيبون " بأن ما وقع لروما لا يمكن أن يحدث لأوربا لأن الغرب حقق تقدما كبيرا فى المعرفة والصناعة فخيل إليهم أن الأمراض التى حطمت الحضارات لن تصيبهم ونسوا أن الليبرالية

والذاتية الممعنة فى المكاسب الشخصية لا تستطيع أن تحافظ على الحرية الفردية وأنها لن تكون بديلة عن الدين والقيم الروحية التى بدونها يشقى الإنسان (ما أغنى عنه ماله وما كسب).

ومع هذا يقول توينبى "بينما تكون الدول ذات أعمار قصيرة وموت مفاجىء فإن حضارة مثل الحضارة الغربية قد تبقى قرونا بعد أن تكون المملكة المتحدة والولايات المتحدة قد اختفت من الخريطة السياسية للعالم".

وقد توقف السفير الدكتور السيد أمين شلبى فى كتابه عند ما لاحظه توينبى من حقائق تهز... منها حجم الفقر فى العالم حتى أمريكا دولة القطب الجديد ١/١٠ وربما ١/٥ السكان فيها مازالوا فقراء بشكل تعيس لا يلقون الرعاية ومازالت البلدان التى يتمتع سكانها، أو جزء منهم، بالثراء أقلية، ومازال ثلاثة أرباع العالم تتكون من فلاحين، ومازال مستوى معيشتهم المادية ليس أعلى كثيرا من مستوى العصر الحجرى!!

" توينبى " فى القرن العشرين يهيب بنا أن نخطط المدن بشكل يجعل أحياءها مقتصرة على نفسها، بحيث يمكن أن يذهبوا إلى المدرسة ويجعل الأمهات والزوجات يتسوقن دون أن يخاطرن بعبور طريق مملوء بالمركبات الآلية.

ألا يذكركم هذا بالقاهرة القديمة؟

لقد كان أهلنا يتمتعون ببعد النظر.

ومن الحقائق التى ساقها "توينبى" فى كتاباته أن بعض الفرنسيين اشتكى من نظام ديجول احتكار الحكومة للتليفزيون الذى يجعلهم يرون ما يريد ديجول أن يروه وانهم بذلك يُجَّردون من وسائل رؤية الحقائق وأن يقروا بأنفسهم ما يريدون فعله ومشاهدته.

ويقول "توينبى" إن التقدم التكنولوجى وأدواته ساهمت فى تمكين الحكومات والمؤسسات من تجميع كمية ضخمة ودقيقة من المعلومات حول نشاطات وحياة الفرد ووجهات نظره، الأمر الذى أصبح يشكل تهديدا غير مسبوق لحريات الأفراد.

وليس توينبى وحده الذى يقول هذا. فهذه المشكلة فجرها سنة ١٩٥٦

- كتاب "كولن ويلسون " Colin Wilson " اللامنتمى "The Outsider أقول والغريب نفسيا حين يبحث، كما يقول "جوركى" فى مقدمة (الشريد) عن مكان مريح فلا يجده، يحز الالم فى نفسه ويتلاشى هذا الإنسان ومن هنا ظهرت المذاهب العبثية واللامعقول.

لقد تساءل "توينبى" عقب الحرب العالمية الأولى ببشاعتها :

- (كيف يتحدث المرء عن حرمة الفرد وقد أصبحت أوربا مقبرة .. وقد سمحت أوربا للمذابح أن تدوم سنوات ... كيف استخدم "المتحضرون" مواهبهم وقدراتهم التنظيمية لذبح الملايين فى حروب لا معنى لها ولا عقل فيها؟

- لقد تصدع الوهم الذى عشت عليه بأنى مواطن محظوظ فى عالم مستقر لقد كنت واهما.

- لقد كانت دراستى للتاريخ استجابة للتحدى الذى وجهه لى إجرام الحرب الذى لا مفسر له.

أقول ولكن أوربا لم تخجل فاخترعت بعد الحرب العالمية الأولى، القنابل الذرية فلم يملك "توينبى" إلا أن صاح :

(يجب أن أتحول الى الزنوج فى أواسط افريقيا لإنقاذنا من الميراث الحالى للبشرية، طالما أنهم وفقا لما يقوله علماء الأجناس عندنا يملكون مفهوما نقيا ونبيلا عن الله وعن علاقة الإنسان به).

وتناول "توينبى" بالنقد "الشيوعية" واعتبرها مذهبا "مرعبا" أساء إلى خصائص الطبيعة البشرية وشوه ما كان نضالا مشروعا من أجل العدالة الاجتماعية كما نقد "القومية" واعتبرها استغلت الصناعة وقت نشأتها مع أن الصناعة عالمية فى روحها فهى التى تعمل بحرية وبشكل مفيد ولكن نشأة الصناعة فى الغرب وسط عالم مفكك من الوحدات السياسية وقت ظهورها جعل كل دولة تنشد مصالحها الاقتصادية على حساب البشرية.

والنتيجة أن الصناعة "تدولت" كالقومية وانتمت انتماءً خاصا حسب كل دولة.

حتى فى حالات السلم فقد العامل الصناعى الصلة التى كانت بينه وبين العمل الذى يؤديه وكان يحبه ويفخر بتجويده.. افتقد الحرية التى حلت الرتابة محلها ولهذا يخلق المعاذير للأجازات أو الاستجمام ليس من التعب ولكن من الشعور بالكآبة وكان العمل قديما استجماما فى ذاته بما يضيفه من تحقيق الذات.

نحن لا نستطيع أن نوقف عجلة الزمن ومنطق الأحداث فإن الزيادة السكانية فى العالم أو فى مناطق واسعة "منه" تؤدى إلى المجاعات إذا عدنا إلى الأساليب اليدوية فلابد من الميكنة لتغطية حاجة الجموع. معنى هذا أن المشكلة التى نجمت عن التكنولوجيا قائمة وستظل .. إن ميزة التكنولوجيا هى آفتها.

ويضرب "توينبى" المثال اليابانى وموقفه من الغرب وتكنولوجيته، فقد تملك اليابانيون التكنولوجيا الغربية وسيطروا عليها دون أن يتخلوا عن تقاليدهم الروحية.

إن تقاليد الأمم العريقة جزء من كرامتها.

وحين يكون غول التكنولوجيا الغربية أكثر خطرا كما يقول توينبى من الزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات والفيروسات، فإن التقدم التكنولوجى يكون قد تحول إلى مصائب اجتماعية واستخدمت أكثر الأساليب العلمية لارتكاب أسوأ المذابح التى عرفها التاريخ.

إن الذين تبهرهم التكنولوجيا ليس معناها الاتساق والتناسق مع الحضارة فقد تكون الحضارة فى حالة اضمحلال على الرغم من اجازاتها التكنولوجية.

إن الدين والفن هما اللذان يضيفان الإنسانية على الإنسان وبيئته... ولهذا يدعو توينبى إلى تحويل الطاقة العقلية إليهما ليقدما للإنسانية الأمل فى البقاء.

أقول إن الغنى المادى "عبء" ... ولكن الغنى الروحى "جناح".

من المشكلات التى شغلت توينبى مشكلة أوقات الفراغ التى خلقتها التكنولوجيا... وهذا الفراغ الكبير يقضيه انسان العصر بطريقة هابطة، كمتفرج سلبى أمام التلفزيون والأحداث الرياضية، التى خلقت لامتصاص الناس وشغلهم عن التفكير فى أشياء وأشياء... ولهذا يجب أن يقوم النظام التعليمى الذى يشجع على النمو الجمالى الثقافى وتنمية الطاقات الروحية.

أترى الشياطين تبتسم الآن ... ولكننا لا نيأس ...

ومن المشكلات التى تؤرق "توينبى" الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى العالم ويرى الحل فى تضييقها من خلال دولة عالمية قوية بما فيه الكفاية لكى تفرض الضرائب على الأمم الغنية لفائدة ومصلحة الأمم الأفقر كما حث الأمم الفقيرة على تشكيل اتحاد بينها شبيه باتحاد نقابات العمال بحيث ترفض بشكل جماعى بيع عملها ومواردها الأولية للبلدان الحوتية (نسبة إلى الحوت) إلا وفق شروط عادلة وتجبرها على تغيير شروط التجارة لصالحها.

هل كان "توينبى" يتنبأ بغول الجات والشركات متعددة الجنسية والنظام العالمى الأوحد لصالح الأغنياء والأقوياء؟

وحيث يخلط الغرب الأوراق يقول توينبى (ليس الغرب الذى تعرض للضرب والإيذاء من العالم.. إنه العالم الذى خرب وأوذى من الغرب ويضرب الأمثلة فالروس لا ينسون أن بلادهم تعرضت للغزو من الجيوش الغربية فى الأعوام: ١٦١٠ - ١٧٠٩ - ١٨١٢ - ١٩١٥ - ١٩٤١.

كما تذكر إفريقيا وآسيا البعثات التبشرية الغربية والتجار والجنود الذين جاءوا من وراء البحار، وتدفقوا منذ القرن الخامس عشر كما تذكر الذين احتلوا الأراضى التى سميت أمريكا والذين احتلوا استراليا ونيوزيلندا.. ويذكر الأفارقة أنهم قد استبعدوا ورحلوا ترحيلاً عن الأطلنطى من أجل خدم المستعمرين الأوربيين للأمريكتين ثم اجتثوا لإتاحة المكان وتوسيعه للمتطفلين.

سخائم وجرائم تحت السطح وتعمل فى الأعماق

وهكذا فى عصر الشترزم الفكرى والثقافى، يتناول "توينبى"، التاريخ حقائق ومعنى شاملاً ... ومع هذا لم يسلم من النقد فهو فى عين ناقديه أنصف الإسلام، وأدان الغرب، ورأى فى اليهود رأيًا مفاداه أو مؤداه :

- أن اليهودية هى خبرة من الحفريات.
- أن التعصب الأعمى هو فى جوهره اختراع يهودى قدم للمسيحية والإسلام... وقد تعرضت المسيحية للخيانة واتهم الإسلام بالإرهاب.
- أن الصراع العربى الإسرائيلى، كارثة كبرى.

❁ أن السقوط الأخلاقى اليهودى يفوق (الخصيص الأخلاقى للنازى).

ولهذا رفض توينبى أن يزور إسرائيل وأن يحاضر فيها... ومع هذا لا يعتبر اللاجئين اليهود، مسئولين عما حدث لفلسطين ولكن الزعماء الصهاينة هم المسئولون عن ذلك... وكذلك الحكومات البريطانية الأمريكية.

إن إسرائيل فى نظره، حالة أخرى من حالات العدوان الغربى ضد الشرق كم جاء من الغرب آخرون ليغتصبوا بالقوة أرض روديسيا، والكنغو، والجزائر.

كما تألم توينبى حين شبه ابنه، من باب التهدئة، اليهود بأنهم ربما كانوا كالغرقى يتعلقون بالمجداف.. فصاح فيه، توينبى ، إنهم يتعلقون به، ويدفعون أصحاب المجداف الشرعيين من فوقه.. وهذا هو ما فعله اليهود حين سرقوا من العرب أراضيهم ثم أعملوا فيهم قتلا وذبحًا جماعيًا.

أما رأى توينبى فى أمريكا فقد بناه على المعايير التى يحددون بها قيمهم.. وفى رأيه أن (جعل حجم الاستهلاك هو معيار الحياة، فهو شىء مقيت حقًا وتزييف أكيد للقيم الحقيقية كما أبدى "توينبى" قلقه من الاتجاهات الأمريكية، ومما يمكن أن يفعلوه تجاه القضايا البشرية كما عبر توينبى عن انزعاجه مما يلمسه من ولع الأمريكيين بالقتال، وتذكر زيارة له للبنتاجون وكيف تملكه شعور بالرعب حين زار وزير الحرب الأمريكى فى مكتبه حيث وجد على كل الموائد والكراسى وفى كل مكان نماذج للصواريخ، وكان الوزير يشعر بالسعادة بها مثل طفل يحيط نفسه بألعابه).

هذا جزء من نقد "توينبى" للآخرين.

أما نقد الآخرين كتابه الحافل فأعنف هؤلاء أو من أشدهم عنفًا الأستاذ سوركيم Pitrim Sorkim فى دراسة عنوانها "فلسفة التاريخ عند توينبى" Toynbee Philosophy of History .

ولا يقل عنه عنفًا المؤرخ تريفوا H.R. Trevolt Roper الذى اتهمه بأنه يعادى العقل وماعادى توينبى غير الجنون والغرور وطالب بترشيد العقل واحترام الدين ليرد غوائل الزهو الكاذب الأجوف.

إلا أن مؤرخًا بارزًا مثل William MCNeiLL ينصفه ويلمس قلقه على الغرب وما حل به فى القرن العشرين كما حمد له حياده العلمى وتقييمه العادل، لحضارات الإنسان الكبرى فى غير إجفال أو إجحاف.

إن الذين انتقدوه لم يقربوا نقاط رئيسية :

- ما قولهم فى القنابل الذرية والنووية؟ لماذا ضربت بها اليابان بعد انتهاء الحرب ولم تضرب ألمانيا المسئول الأول عن الحرب؟ نحن نستنكر ضرب أى شعب بالقنابل الذرية.
- هل هى مسألة شرق وغرب ؟
- هل هو التعصب الذى أدانه توينبى فلم يُعجب؟
- ما قولهم فى اعتداءات الغرب على الشرق التى فصلها توينبى؟
- ما قولهم فى اغتصاب اليهود فلسطين وما سبقه وما لحقه من نكبات؟

نعود إلى المؤرخ الفذ مرة أخرى.

كان منجزًا ويكاد يكون معجزًا، إذا قسنا عطاءه العلمى بعمر الإنسان.. كان دقيقًا حساساً إلى حد القلق حتى فى أمور الحياة اليومية.. كان يصل إلى محطة القطار ٤٠ دقيقة قبل موعده ... ولم يكن لينتظر حين يصل القطار إلى المحطة فكان توينبى يضع بنفسه حقائبه مبددًا جهدًا عضليًا وهو بحاجة إلى الراحة التى تعينه على العمل الذهنى الموصول.

وكان قلقاً أكثر فيما يتصل بكتاباته، ولكنه القلق الذى جعله عبدًا لعمله وفى المقابل جعله حرًا لكى يكون سيد نفسه فى توجيه دراساته واهتماماته الفكرية.

لماذا اختار التاريخ، والتأريخ؟

يفسر توينبى ذلك بأنه مؤرخ لأن أمه كذلك، ومع ذلك لم يكن يتبع ميل أمه للتاريخ.. ولعل هذا الإحساس بشخصيته جعله ينحو منحى آخر فى دراسة التاريخ فقد أحبت أمه الحقائق التاريخية المحددة لغاية أبعد إذ يرى فيها مفاتيح لفهم الطبيعة، واكتناه أسرار العالم.. ولهذا لم يكن تناوله الأحداث سردًا بل تحليلاً واستشفافًا واستقصاء ونفاذًا ورأيًا ثاقبًا وعلامة طريق.

علمته المدرسة وعلمته القراءة المتصلة.. وعلمه السفر والارتحال... وعلمته التجربة وعلمته الحياة الخصبة بالعمل، حتى أهدى بدوره خمس نصائح لمن يشتغل بالكتابة والتأليف.. أول نصيحة ذهبية قدمها له أستاذه الأول بالمدرسة الإعدادية وهو يعتبره أفضل مدرس تلقى عليه.

هذه النصيحة الذهبية (لاتندفع بتهور وفكر قبل أن تتصرف واعط نفسك وقتًا لكى ترى موضوعك أو مشكلتك ككل).

والنصيحة الثانية : التى يهديها توينبى هذه المرة، هى أن يتصرف المرء فى الحال ما دام يشعر أن فكره قد نضج وأصبح جاهزًا للتصرف... ذلك أن الانتظار والترقب كثيرًا، قد يكون أكثر سلبية فى آثاره من الإندفاع والتهور.

والنصيحة الثالثة : هى أن يكتب الكاتب بشكل منتظم وفى أى وقت من اليوم تشعر أنك تكتب فيه بشكل أفضل.

النصيحة الرابعة : ألا يفقد الكاتب فترات متفرقة من الوقت حتى لا تفتر همته.

النصيحة الخامسة : انظر دائماً إلى الأمام كما ينظر المتسابق بالسيارة نحو الأفق الذى سوف يبلغه.

ويرى توينبى أن الإنسان يجب أن يعيش من أجل أهداف ثلاثة:

أن يحب ـ أن يفهم ـ أن يكون خلاقاً يضيف.

ويُرجع السفير الدكتور السيد أمين شلبى، هذه النظرة الرحبة فى دراسة التاريخ إلى تعليم توينبى تعليماً كلاسيكياً شمل: الأدب ، والفن ، والفلسفة ، والسياسة ، والتاريخ.

ليس كموضوعات منعزلة وإنما كوجوه متعددة لنظرة متميزة إلى العالم.

أقول بدورى:

مثل هذا التعليم يصنع الإنسان.

ويصنع النماذج الرفيعة.

ليتنا نستوعب الدلالات والإشارات والمرامى البعيدة التى تقف وراء إعداد الأجيال.

وهكذا أبحر السفير الدكتور السيد أمين شلبى فى عالم توينبى الفكرى وحلل وأوفى .. إن ما عرضته من كتابه القيم لمحات فحسب .. رؤوس موضوعات أترك بعدها القارىء فى الكتاب يقرأ ثم يعيد .. ويفكر ويستزيد على مهل ... ويقينى أنه سيقبل عليه مرات يشرب منه عللا بعد نهل.

وحسب الكاتب والكتاب أن كليهما أدى وأوفى

د. نعمات أحمد فؤاد

تقديم

ربما لم ينل مشتغل بالتاريخ فى العصر الحديث من الشهرة والمكانة العالمية مثلما نال المؤرخ البريطانى آرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) وقد أصبح اسم توينبى مألوفا للمثقف المصرى والعربى بوجه خاص لموقفه المنصف من القضية الفلسطينية، ورؤيته للوجود الصهيونى فى فلسطين باعتباره اغتصابا لأراضى الغير، وامتدادًا للإمبريالية والظلم ضد الشرق، غير أن الشهرة الدولية العريضة التى اكتسبها توينبى قد ارتبطت بعمله الضخم: "دراسة التاريخ" Study of History والذى كتبه علي مدى عشرين عاما ١٩٣٤ - ١٩٥٤.

ولم تكن المكانة التى اكتسبها توينبى بعد إنجازه لهذا العمل نتيجة لمستواه الكمى فحسب حيث صدر فى إثنى عشر جزءاً ، وإنما لنطاق الدراسة العريض والمنهج الذى اتبعه مما جعلها أكثر المجالات طموحا، وبشكل لم يجرؤ عليه مؤرخ قبله. فعلى عكس غيره من المؤرخين الذين اكتفى حتى أفضلهم بإلقاء نظرة جزئية على التاريخ البشرى وحصروا أنفسهم فى فروع تخصصهم، كان توينبى هو الذى قدم نظرة رحبة وبانورامية للتاريخ، ومفهوماً شاملاً يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى سجلها التاريخ. ومثل هذه النظرة الشاملة للتاريخ هى التى جعلته يتحدى تمركز المؤرخين الغربيين حول تراثهم واعتبارهم أنهم بحضارتهم الغربية إنما يقفون موقفا متميزا يحتكرون فيه التاريخ وكأن التاريخ قد توقف تمامًا عند عالمهم الغربى، لذلك أُعتُبِرَ أن مساهمة توينبى الأساسية فى تقاليد المعرفة هو رؤيته للتاريخ البشرى من منظور أوسع، وتذكيره لأبناء حضارته بالحقيقة البسيطة أن الآسيويين، والإفريقيين بل وشعوبا مثل الهنود الحمر والأسكيمو لهم تاريخ مستقل عن تاريخ الغرب.

كذلك كان من إسهامات توينبى الأساسية فى دراسته للتاريخ، أنه لم يكن يتتبع تاريخ العالم وحضاراته المتعاقبة لمجرد السرد التاريخى، وإنما للخروج بنظرية حول القوانين التى حكمت هذه الحضارات ومراحل نشوئها، ونموها ثم بدء انهيارها وتفككها وفنائها. وهذا التحليل للحضارات هو الذى قاده إلى أن يلقى سؤاله الجوهرى حول وضع الحضارة الغربية المعاصرة ومستقبلها ، وتساؤله عما إذا

كان مصير الحضارات التى اندثرت سوف ينطبق عليها، وهو السؤال الذى وضع توينبى به الغرب أمام مأزقه الحضارى والفلسفى، وضاعف توينبى من وقعه حين رآه ينبع من نفس ما اعتبره الغرب إنجازه التاريخى وهو التقدم العلمى والتكنولوجى والتقاليد الليبرالية والعقلية التى أرساها عصر التنوير وذهب بها الغرب إلى أبعاد إنتهت إلى إعلاء شأن القيم المادية وفصلته عن القيم الأخلاقية والروحية وصنعت هذا الفراغ الروحى الذى تعيشه الحضارة الغربية المعاصرة.

وقد ادى مواجهة توينبى للحضارة الغربية بمأزقها هذا إلى الكثير من سوء الفهم حول دوافعه الامر الذى تعرض معه لنقد عنيف من جانب بعض المؤرخين الغربيين الذين ذهبوا إلى أن توينبى فى أعماقه ولكى يثبت ويحقق نظريته يود أن يرى الحضارة الغربية وقد تهدمت ، كما رأوا فيه عدوًا لكل ما يمثله الغرب من قيم العقل والحرية وما أنتجته من تقدم.

والواقع أن تحليل توينبى لواقع الحضارة الغربية والأخطار التى تتهددها والتأثيرات السلبية التى صاحبت تقدمها المادى والعلمى، لم يكن انتقادًا للعلم وتطبيقاته، حيث كان يعتبره قوة فعالة فى التطور البشرى، أما ما كان ينبه له فهو أن هذه القوة ليس وراءها القوة الروحية والفهم الخير الذى يوجهها ويستخدمها الاستخدام السليم، الأمر الذى نشأ معه هذا الاختلال فى العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الانسان فى المجتمع الغربى، كما أدى إلى المفارقة الصارخة حيث إن تقدم العلم والتكنولوجيا لم يزد من سعادة الإنسان حتى فى أكثر مجتمعات الغرب تقدما حيث بقيت أقسام واسعة منه فى حالة فقر مادى كما ظلت أقسام كبيرة من المجتمع البشرى تعيش فى ظروف العصر الحجرى. كذلك لم يكن انتقال توينبى للمذهب العقلى انتقاصا من قيمة العقل حيث كان يؤكد أن الحياة البشرية فى مجموعها هى فى النهاية صراع من أجل إعلاء شأن العقل، أما ما كان يعنيه فهو الحاجة إلى إدراك حدود العقل البشرى وقصوره عن تفسير جميع حقائق الكون والطبيعة البشرية، ومن ثم الحاجة إلى استكمال هذا النقص بالرؤية والخبرة الحدسية.

كذلك لم يكن توينبى كما أراد نقاده أن يصفوه عدوًا للحضارة الغربية حين انتقد وعارض توسعها الإمبريالى واضطهادها للشعوب ، بل إنه أعتبر نفسه فى

هذا مدافعا عن الحضارة التى ينتمى إليها وعن مستقبلها الذى رأى أنه يجب أن يقوم على أساس علاقة طبيعية متكافئة مع غيرها من الشعوب والحضارات وأنه إذا كانت السيطرة الغربية قد قامت على أساس من التقدم المادى والعلمى فإن الحظوظ والمصائر يمكن أن تتغير حين تمتلك هذه الشعوب هذه الوسائل ، ولذلك فإنه من مصلحة الغرب أن يصحح هذه العلاقة اليوم قبل أن يضطر إلى تصحيحها وهو فى موقف ضعيف.

غير أنه إذا كانت سمعة توينبى العالمية قد ارتبطت أساسا بعمله الضخم عن دراسة التاريخ ونظريته فى الحضارات ومراحلها ، فإن جانبًا آخر من نشاط توينبى الثقافى والفكرى قد لا يقل حجما وتكرسا عن دراسته للتاريخ، فقد عكف منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٤٢ على تحرير التقرير الدولى السنوى للشئون الدولية المعاصرة والذى عرف بـ : Survey of Ianternational Affairs

(وقد خصص الجزء الذى صدر عام ١٩٢٧ للعالم الإسلامى تحت عنوان :

The Islamic World since the peace settlement

أما الحقبة الأخيرة من حياته فقد ارتبط وانشغل فيها بشكل أكثر بقضايا البشرية ومجتمعاتها المعاصرة مثل قضايا الديموقراطية والتعليم والحروب والبيئة ومدى استجابة البشرية للتحديات التى تواجهها مثل الانفجار السكانى أو التلوث، وتضاؤل الموارد الطبيعية ومشكلات التقدم العلمى وسوء توزيع الثروة العالمية، وهى القضايا التى تصبح اليوم أكثر وأكثر على قمة جدول أعمال اهتمامات البشرية وتعتمد – مثلما ظل توينبى يؤكد – على وحدة البشرية فى التعامل مع هذه القضايا.

الفصول التالية هى نظرات فى آرنولد توينبى : فى مصادره ومكوناته الفكرية والثقافية، والعيون التى استخدمها للعثور على مادته التى سيرى من خلالها حضارات العالم وكتب منها دراسته للتاريخ، فى رؤيته لأهمية دراسة التاريخ والخبرة التى تقدمها دراسته فى النظر إلى الحاضر وصناعة المستقبل ولمدى قيمة هذه الخبرة، وفى مجال دراسته التاريخية والمنهج الذى اتبعه فى هذه الدراسة، وفى تتبعه للحضارات القديمة والمعاصرة وتصنيفه لها وفيما يعنيه أساسا بالحضارة،

ومراحل تطورها والقوانين التى تحكمها ، وفى رؤيته الدينية كأساس لرؤيته التاريخية، وفى رؤيته وتحليله للحضارة الغربية المعاصرة ومأزقها الذى تواجهه باتساع الفجوة بين التقدم المادى والعقلى والتراجع الروحى والأخلاقى، فى علاقة الغرب بالعالم وبالحضارات والثقافات الأخرى كالإسلام وحضارات الشرق الأقصى فى اليابان والصين والهند، ثم فى تفكيره وتأمله فى القضايا التى تواجه البشرية والإنسان المعاصر، وأخيرًا فى ألوان النقد التى وجهت إليه وإلى دراسته للتاريخ، وفى مكانته فى التاريخ الثقافى وكيف سينظر إليه ويُقيمهُ مؤرخو المستقبل.

وبعد،

فأرجو أن أكون بهذه النظرات قد وفقت فى إعادة قراءة وتقديم هذا المؤرخ الفذ الذى كرس حياته وعمله للبحث وإعادة بناء الحقيقة التاريخية فى شمولها البشرى وفى الدفاع عن القيم الروحية والأخلاقية كأساس لأى جهد بشرى حقيقى وفى التركيز على القيم المشتركة بين الديانات التى تعلو بها على أية انقسامات عرقية أو ثقافية ، وفى تذكيره لأبناء حضارته بأخطائهم نحو أنفسهم ونحو العالم.

د. السيد أمين شلبى

مداخل

لماذا يعمل ؟ وكيف ؟

بداية ما الذى كان يدفع ويحفز توينبى على العمل والنشاط الفكرى؟ يجيب على ذلك بقوله إنه حين كان طفلاً فى المدرسة كان الدافع الرئيسى الذى يعيه هو القلق، فقد كان فى قلق دائم لكى يكون سباقاً فى أن يتعرف ويدرك معانى صفحات من اليونانية أو اللاتينية والتى سوف يطلب منه شرحها وتفسيرها فى الفصل . وقد ظل هذا القلق ملازما له طوال حياته حتى فى التلهف والحسرة على أن يصل مبكرا للحاق بالقطارات أو الطائرات. ورغم ما كان يمثله هذا القلق والتلهف من دافع على التحقيق والإنجاز إلا أن توينبى يرى أن له مساوئه من حيث إنه يستهلك الطاقة العصبية التى كان يمكن أن تستخدم بشكل إيجابى أكثر، كما كانت رغبته فى إنجاز الأمور قبل موعدها تفرض عليه أعباء إضافية، فحين كان يصل إلى محطة القطار ٤٠ دقيقة قبل موعده، فإن من يحمل له حقائبه لم يكن لينتظر حتى يصل القطار على المحطة وعلى هذا فقد كان عليه أن يضع حقائبه بنفسه فى القطار حين يصل. ويستدعى فى هذا واقعة حدثت فى حياته المدرسية حين دعى أن يشرح بعض الفقرات الصعبة من الأدب اليونانى وكان قد أعدها بعناية إلا أنه فعل هذا قبل المناقشة بعدة أسابيع ، وحين حل موعد المناقشة كانت معانيها واستيعابه لها قد ضعف، ولو لم يكن أستاذه يعلم أسلوبه فى العمل لكان قد ظن أنه لم يؤدى واجبه، ولكن لحسن الحظ استنتج الحقيقة وهى أن توينبى قد أعد واجبه منذ فترة طويلة قبل الموعد المطلوب. وهكذا يعتبر توينبى أن القلق والتلهف على الإنجاز لم يكن يوما عادة طيبة فى ذاتها وإنما يمكن أن يكون ضارا إذا ما بلغ حدا من التطرف، غير أن القلق ظل عنده قوة دافعة قوية يمكن أن تعلو على جوانبها السلبية.

أما الدافع الثانى لتوينبى فى العمل فقد كان دائما هو الضمير، ويعتقد أن الضمير المتزمت ربما كان جزءا من الميراث الاجتماعى لعائلة والده، الأمر الذى جعل العمل باستمرار وبكل طاقته هو نتاج ما يمليه عليه الضمير كواجب. وكلا من الضمير والقلق يمثلان عنده زوجان قويان من القوة الدافعة، وهما إذا كانا يضمنان للمرء أن يعمل بشكل شاق إلا أنهما لا يؤكدان أن هذا العمل يمكن أن

يكون فى شيء يستحق. إنهما قوى عمياء تدفع ولكنها لا توجه غير أن من حسن حظ توينبى أنه إلى جانب القلق والضمير، كانت تدفعه أيضا قوة ثالثة ألا وهى الرغبة فى أن يرى ويفهم. غير أنه لم يشعر بهذا الدافع إلا بعد أن أصبح على وعى بالدافعين الآخرين، وإن كان يظن أنه قبل أن يدرك هذا الدافع الثالث فلابد أنه كان يحركه منذ المراحل الأولى من حياته والرغبة فى أن يرى وأن يفهم أو بمعنى آخر الشغف وحب الاستطلاع. والذى يعتبره توينبى أحد الخصائص المميزة للطبيعة البشرية على نقيض طبائع الحيوانات والكائنات غير البشرية. وعنده أن كل الكائنات البشرية تمتلك حب الاستطلاع بدرجة ما إلا أنها تبدو قوية عند البعض أكثر منها عند البعض الآخر، وهذه هى إحدى النقاط التى تختلف فيها الكائنات البشرية عن بعضها البعض بشكل ملحوظ. أما توينبى فهو يعتبر أن شحنة حب الاستطلاع التى وهبها له الله كانت عالية ويعبر عن امتنانه القلبى لله على هذه المنحة.

ويشير توينبى للترابط بين دوافعه الثلاثة وكيف أن كلا منها كانت تخدم الأخرى فيذكر أن القلق الذى كان يدفعه وهو فى المدرسة لأن يعد عمله وواجبه المدرسى قبل موعده كان له أثره فى تحديد وقته وتمكينه من أن يتابع ويحقق شغفه بحب الاستطلاع وإشباعه بإنجازه لدروسه قبل موعدها بوقت طويل كان يتيح له وقتا كافيا لكى يشغل نفسه بما يحب أن يعمله وبما يشبع حب استطلاعه فى اهتمامات أخرى خارج النطاق المدرسى، هذا فى الوقت الذى كان فيه أقرانه مشغولين بواجبهم المدرسى حتى اللحظة الأخيرة ويركز توينبى على عبارة "ما أحب" والتى تعنى عنده "ما اخترت" وما هيأ نفسه لعمله، وهكذا كان القلق الذى جعله عبدًا لعمله، جعله أيضا حرًا لكى يكون سيد نفسه فى توجيه دراساته واهتماماته الفكرية.

ويطرح توينبى سؤالا هاما حول دراسته للتاريخ ويتساءل: لماذا أنفق حياته فى دراسته؟! ويجيب بأن ذلك كان للمتعة : for fun ويفسر ما يعنيه بعبارة fun بأنها طريقة أخرى لأن يقول إنه درس التاريخ لأنه كان الطريق الذى يستطيع عبره وبأفضل وجه إقامة علاقة حميمة مع الواقع النهائى وبذلك يصبح أكثر الأهداف جدية ويعتقد توينبى أن اجابته تلك تتصف بالأمانة وأنه إذا ما ظل السائل يسأل عما

إذا كان ذلك سيكون اختياره إذا عادت حياته من جديد، فإن إجابته ستكون إن هذا كان ما سيفعله ويقول هذا باقتناع.

ولكن لماذا دراسة التاريخ بوجه خاص؟ ويجيب توينبى بأن حب الاستطلاع هو عادة ملتهمة وأن ثمة عددا لا يحصى من الأشياء فى العالم، بجانب التاريخ، التى يمكن أن تثير حب الاستطلاع فى الكائنات البشرية وتثيره بالفعل، فلماذا انصب حب الاستطلاع عنده على التاريخ؟ ويفسر توينبى ذلك بأنه مؤرخ لأن أمه كانت كذلك وأنه لا يتذكر وقتا لم يأخذ فيه كقضية مسلمة أنه سوف يتبع أمه للتاريخ ودراسته غير أنه رغم أن أمه هى التى ألهمته أن يصبح مؤرخا إلا أن ذلك يبقى فى معناه العام فقط، فقد أحبت أمه الحقائق التاريخية المحددة لذاتها وقد أحب هو هذه الحقائق التاريخية كذلك لطبيعة الحال، ذلك أنه إن لم يحبها الإنسان فإنه لا يمكن أن يصبح مؤرخا، فالحقائق هى المخزون الذى يعمل به ويعتمد عليه المؤرخ. غير أن حب توينبى لحقائق التاريخ لم يكن من أجل ذاتها، فهو يحبها من أجل أمور أبعد منها إذ يرى فيها مفاتيح لفهم الطبيعة والاهتداء إلى معنى لغموض العالم وسره، هذا الغموض والسر الذى يشعر به كل كائن بشرى منذ أن يستيقظ وعيه، فنحن نريد أن نفهم الكون ومكاننا فيه، ونحن نعلم أن فهمنا له لن يكون كاملا ولن يتعدى فكرة غامضة، غير أن هذا لا يجب أن يثبط من عزيمتنا عن أن ننشد أكثر مما نستطيع أن نحصل عليه من الضوء.

ومثلما ألقى توينبى الضوء على دوافعه إلى العمل والنشاط الفكرى وعلى أسباب حبه واشتغاله بالتاريخ، فإنه يشرح أسلوبه ومنهجه فى العمل والدراسة منذ أيامه الأولى فى التعليم، ويستخلص من تجربته العريضة والعميقة فى الدراسة والعمل والكتابة نصائح يقدمها للمشتغلين بالحياة الثقافية بوجه عام.

يقول توينبى إنه ما بين عشرة، وعشرين من عمره كان فى استعداد دائم للامتحانات المتتابعة، وقد كان الاستعداد لهذه الامتحانات ذو طابع تعليمى بعدة طرق فهو يجعل الإنسان مسئولا عن أن يهيىء نفسه للعمل، ورغم أن مدرسا قادرا ومتعاطفا يستطيع أن يساعد التلميذ على التعلم إلا أنه لايستطيع أن يقوم بذلك نيابة عنه. ويتذكر توينبى أن أستاذه فى المدرسة الإعدادية كان أفضل مدرس حصل عليه فقد علمه كيف يعمل ورغم أنه أدرك منذ البداية أنه كان مدرسا غير عادى إلا

أن امتنانه قد تزايد بشكل مستمر حيث وجد نصيحته مفيدة فـى التعامل مـع قضيـة فكرية بعد أخرى. وكانت أول وأفضل نصيحة قدمها لتوينبى هى أن لا يجعل شيئا يصيبه بالذعر كأن يدرك مثلا أن الوقت المتاح للإجابة محدود، ونُصحه لـه بـأن لا يندفع بالإجابة دون تفكير سابق إذ أن أفضل وقـت ينفقـه مـن السـاعات الثـلاث هـو الذى يوجهه للتفكير قبل أن يشرع فى الإجابة، وقد علمه أستاذه هذا أن يحاول دائماً توضيح أفكاره وأن يحرص على أن يرى الغابـة دون أن يفقد نفسـه بيـن أشـجارها وأن يبدأ من المعلوم إلى المجهول.

ويفسر توينبى الأسس التى التزم بها فى عمله وسعيه للحصول على المعرفـة وكيف تطورت هذه العملية فيقول إنـه قد رفض - ومـا زال يرفـض - أن يضـع حدودا على حصوله على المعرفة بأن يحصرها داخل حقل محـدد وبشـكل تحكمـى وأنه استطاع أن يهتدى إلى طريقة أفضل لوضع حدود لمـا لا حـدود لـه. فبمـرور الزمن أصبح العمل بالنسبة له هو الكتابة أو الاسـتعداد للكتابـة ، كمـا لـم يعـد يعنـى القراء فقط . وقد خصص للكتابة الساعات ما بين الإفطـار والغـذاء - وهـو الوقـت الذى يشعر أن عقله يكون فيه أكثر نشاطا. كما ترك قراءته لكى تعنـى بنفسـها وقـد برهن هذا المنهـج علـى نجاحـه بالنتـائج التـى حققتهـا وقـرأ مـا احتـاج إلـى قراءتـه لاستخدامه فى كتاباته ونجح فى قراءة قدر كبير مما كان ضرورياً وهو يهيئ نفسـه لعمل تالٍ. وهذا الأسلوب هو الذى جعله يكتب أكثر مما حلم به.

وفى إعطائه الأولوية للكتابة فقد تخلى عن الحصول على مزيد مـن المعرفـة فـى حقـل اللغـات ، ولكنـه ركـز علـى حقـل آخـر للمعرفـة وهـو المعرفـة المباشـرة بالبيئات المختلفة والتى كان دائما شغوفا بـأن يضيفهـا إلـى حصيلتـه المعرفيـة. وقد كان فى جوع إلى السفرنتيجة للافتقار إلى الوقت والمال، ولكنه منذ عام ١٩١١ فقد سافر إلى الحد والمدى الذى استطاعه، وبحيث أصبح السفر هو النشاط الذى أعطـاه أسبقية على الكتابة. فقد كان على الكتابة أن تنتظر حين تلوح فرصة للسفر ذو فائدة ثقافية. وقد كان وراء هذا الاتجاه اعتقاد توينبى أنه لمن يدرس الشئون البشرية فـإن السفر يجب أن يجىء قبل أى شىء، فالبشر والمجتمعات البشرية لا يمكـن أن تُفهـم بشكل منعزل عن بيئاتهم، وبيئاتهم الجغرافية لا يمكن فهمها بشكل غير مباشـر وقـد يتوفر الإنسان لعدة سنوات للقراءة عن بلد ما والنظر فـى خرائطـه دون أن يحصـل

على فكرة صادقة عن طابعه، إلا أن لمحة واحدة للطبيعة بعين الإنسان يمكن أن تقدم له المعلومات الجوهرية التى فشلت المصادر الثانوية فى تقديمها.

فما هى النصائح التى يقدمها توينبى من خلال تجربته للمشتغلين بالحياة الثقافية، يقول توينبى إن لديه خمس نصائح لهم، أولها هى تلك النصيحة الذهبية التى قدمها له أستاذه الأول وهى: لا تندفع بتهور، وفكر قبل أن تتصرف، واعط نفسك وقتا لكى ترى موضوعك أو مشكلتك ككل. والنصيحة الثانية هى أن يتصرف المرء فى الحال مادام يشعر أن فكره قد نضج وأصبح جاهزا للتصرف، ذلك أن الانتظار والترقب كثيرا قد يكون أكثر سلبية فى آثاره من الاندفاع والتهور. ونصيحة توينبى الثالثة لا يوجهها لمن يشتغلون بالكتابة التاريخية فقط وإنما فى كل حقل من حقول الكتابة والمعرفة وهى أن يكتب بشكل منتظم وفى أى وقت من اليوم تشعر إنك تكتب فيه بشكل أفضل ولكن لا تنتظر حتى تشعر أنك فى حالة مزاجية جيدة، فعليك أن تكتب سواء كنت فى حالة مزاجية جيدة أم لا . وفى هذا يقول توينبى عن تجربته الخاصة بالالتزام بمنهج العمل المنظم هذا " كيف أنجزت جدول أعمالى الخاص؟ لأنى قد الزمت نفسى بأن أكتب كل يوم سواء كنت فى حالة مزاجية جيدة أم لا ، ولأنى أبدأ منذ السابعة صباحا كل يوم ". ويقول توينبى أن ما تكتبه حين لا تكون فى حالة مزاجية سيئة لن يكون جيدا بطبيعة الحال مثل الذى تكتبه حين تشعر أنك فى أحسن أحوالك، ولن تشعر بالرضا مع أول صورة له ولكن هذا يمكن تعديله وتطويره وحتى هذا قد لا يتحقق بالصورة التى ترتضيها كما يمكن أن تحقق إذا ما كتبتها بحماس، ورغم هذا فربما تجىء الفرصة وتفى بالغرض المطلوب فى الوقت الذى تكون قد حققت فيه تقدما ما نحو الإنتهاء من مشروعك أما إذا أنتظرت حتى تحقق الكمال فربما انتظرت حتى بقية حياتك العاملة ذلك أن لا شىء انجزته الأيدى أو العقول البشرية قد بلغ حد الكمال، فإذا كان ثمة أعمال كاملة كثيرة فإنها من عمل الله لا الإنسان ، وإذا ما افترض الإنسان الفانى أنه يستطيع أن يحقق الكمال فإنه يكون قد ارتكب خطيئة الكبرياء والشعور بالفخر الذى يسبق عادة السقوط.

وتصيحة توينبى الرابعة للمشتغل بالشئون الثقافية والفكرية هى أن لا يفقد فترات متفرقة من الوقت، وأن لا يقول لنفسه ها قد أنجزت هذا العمل، وأن العمل

التالى لا يستحق البدء فيه قبل صباح الغد أو خلال نهاية الأسبوع، وعلى هذا فنؤجل هذا اليوم أو بقية هذا الأسبوع فإنه يمكن أن أسترخى وآخذ الأمور ببساطة والحقيقة أنه ربما لم يفعل هذا، ذلك أن اللحظة الصحيحة لكى يبدأ الإنسان عمله التالى ليست غدا أو الأسبوع القادم، إنما هى فى الحال وتماما مثل التعبير الأمريكى Right now وإنه لمن الدلالة أن يكون هذا تعبيرًا أمريكيا ذلك أن الأمريكيين هم أكثر الناس فعلا وإنجازا.

أما نصيحة توينبى الخامسة فهى : انظر دائما إلى الأمام مثلما ينظر المتسابق بالسيارة من خلال نظرته البعيدة نحو الأفق الذى سوف يبلغه قبل أن يعرفه.

غير أن خبرات وتجارب توينبى بطبيعة الحال لا تقتصر على دوافعه وحوافزه إلى العمل والنشاط الفكرى أو أسلوبه ومنهجه فى الدراسة والتحصيل العلمى فلم تكن هذه إلا مقدمات لخبراته الأوسع حول قضايا تاريخية وفلسفية وتلك المتصلة بالإنسان والمجتمع البشرى وبشكل خاص المعضلات الوجودية والعملية التى يواجهها نتيجة لتقدمه المادى والتكنولوجى، لذلك نجد توينبى يتساءل بداءة عن هدف أو أهداف الإنسان من الحياة؟ ومن أجل أى شىء يعيش الإنسان، وعن العوائق والعقبات التى تعترض تحقيق هدف الإنسان من الحياة وما هو الثمن الذى يدفعه من أجل ذلك؟ وسوف نرى أن توينبى يرى هذه العوائق أساسا فى اختلال العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان، وأن هذا الاختلال يجىء أساسا لتزايد الثروة المادية وللتقدم العلمى وتطبيقاته التكنولوجية وسيطرتها على بيئة الإنسان وعبودية الإنسان لها، وهى العملية التى افتقد الإنسان خلالها سعادته بل وربما إنسانيته وقربت البشرية من الخطر. هذا التصور للوضع البشرى هو الذى يجعل توينبى يستخلص أن أهم ما يجب أن يشغل البشرية اليوم ليس هو المزيد من التقدم العلمى فلديها منه ما فيه الكفاية، وإنما تقليل الفجوة الأخلاقية وجعلها أقل اتساعا مما هى عليه اليوم. ويناقش توينبى اتصالا بذلك دور الدين فى دعم الجانب الروحى فى الإنسان وتحقيق التوازن المفقود مع الجانب المادى، ذلك أن العلم والتكنولوجيا لا تستطيع أن تقدم بدائل للدين الذى لا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه، أو أن يعيش بدون عقيدة. ويؤكد توينبى على إعلاء الجانب الروحى

فى تخليص الإنسان من أنانيته وفرديته، التى يعتبر أنها تمثل المشكلة الأساسية لدى الإنسان والمجتمع البشرى المعاصر.

فما هو الهدف من الحياة وما الذى يجب أن يعيش من أجله الإنسان؟ يجيب توينبى أن حالة التشويش والاختلاط والقلق والضغوط والتعقيدات والتغيرات السريعة فى الحياة المعاصرة لها نتائجها فى العالم كله، ولكنها أكثر وقعا وأكثر تأثيرا على الشباب. فالشباب يريد أن يجد طريقه، وأن يفهم معنى الحياة وأن يتعامل مع الظروف التى يواجهها بقوة واندفاع، غير أنه إذا كان السؤال حول ما الذى يجب أن يعيش من أجله الإنسان يطرح نفسه بشكل خاص بالنسبة للشباب إلا أنه يحوم فوق الإنسان فى كل مرحلة من مراحل الحياة.

ويحدد توينبى أن الإنسان يجب أن يعيش من أجل أهداف ثلاث : أن يحب، وأن يفهم وأن يكون خلاقا وفى سعيه لتحقيق هذه الأهداف الثلاث فإن الإنسان يجب أن يبذل كل قدراته وطاقته بل أن يضحى بنفسه إذا ما اقتضت الضرورة ذلك وإذا رأى أى شىء له قيمته يستحق التضحية من أجله، وسوف يكون الإنسان مستعداً لتقديم هذه التضحية إذا شعر بقيمة وجدارة ما يضحى من أجله.

ويعتقد توينبى أن الحب له قيمة مطلقة وأنه هو الذى يعطى قيمة للحياة البشرية، وكذلك لحياة أنواع أخرى من الحيوانات الثديية والطيور. وكل أنواع الحب عند توينبى هى رغبة ولكن هناك نوعين من الرغبة فهناك الرغبة التى تأخذ الإنسان بعيدا عن نفسه وتجعله يقدم نفسه للآخرين وللعالم وللوجود الروحى الذى يكمن فيما وراء الكون. أما النوع الآخر من الرغبة فهى التى تحاول أن تستغل الكون وأن تجذبه نحو المخلوق نفسه وتستخدمه لأهدافه فكلا النوعين رغبة ولكن كلا منهما نقيض الآخر، ومن هنا فإن توينبى يقرر بوضوح أن نوع الحب الذى يعنيه هو النوع الأول من الرغبة، وأنه يتحدث عن هذا النوع من الحياة حين يتحدث عما يجب أن يعيش من أجله الإنسان.

وإذا كان توينبى يقول إن الإنسان يجب أن يعيش من أجل أن يحب فإنه لا يعتقد أن الحب يجب أن يكون هو المطلب الأول والوحيد للإنسان، بل إن ثمة قيما أخرى يجب أن يعيش من أجلها وفى مقدمتها الفهم understanding ذلك أن

الإنسان – بين المخلوقات الحية على هذا الكوكب – يبدو فريدا فى أمتلاك الوعى والعقل، ولذلك فلديه القدرة على اختيارات إرادية، ونحن نحتاج أن نستخدم هذه القدرات البشرية الخاصة لتوجيهها إلى الوجهة الصحيحة، غير أنه من الصعوبة أن نحدد أى أهداف نعطيها الأولوية، وهذا ما يجعل الوعى الناجم عن التفكير الرشيد مطلوبا فى هذه العملية. ولذلك يعتقد توينبى أن استخدام وتنمية وتطوير عقلنا البشرى هو أكثر الأمور أهمية، ذلك أن طبيعتنا البشرية تتميز بالرُشد فى جانب صغير جدا منها ، فنحن البشر مثل المخلوقات غير البشرية محكومين جزئيًا بالعواطف والدوافع غير الواعية، وعقلنا البشرى إنما يقع على سطح الروح، أما ما تحتها من أعماق الوعى الباطن، فلا يمكن سبر غورها. وقد تكون دوافعنا التى تصدر عن الوعى الباطن، خيرة أو شريرة، ونحتاج أن نأتى بها إلى منطقة الوعى حتى يمكن بقدر ما نستطيع أن ننظر إليها عن قرب من أجل أن نرى ما إذا كانت خيرة أو سيئة حتى نختار ونتبع الطيب وأن ننبذ السيئ، وهنا مرة أخرى نحتاج إلى أن نبقى عقلنا ووعينا دائمًا فى حالة يقظة وعمل، فحياة الكائن البشرى هى نضال مستمر بين الجانب العاقل والجانب غير العاقل فى الطبيعة البشرية، ونحن نحاول دائما أن ننتزع جانبا أكبر من طبيعتنا ونبقيه للعقل على حساب العاطفة العمياء، غير أننا فى هذه المحاولة غالبا ما نخسر وعندئذ يتفوق الجانب غير العاقل على الجانب العاقل منا، وفيما يعتقد توينبى أن الحياة البشرية فى مجموعها هى صراع من أجل إعلاء شأن العقل.

أما الهدف الثالث الذى يجب أن نعيش من أجله فهو أن نكون خلاقين، فما الذى يعنيه توينبى بأن يكون الإنسان خلاقا؟ Creative يعنى بذلك محاولة تغيير هذا العالم من أجل أن نجد أنفسنا فى وضع نحاول أن نضيف إليه أشياء طيبة إذا ما أمكن ذلك. إن الكون وفى الحالة التى نجدها عليه حين يبدأ إدراكنا ووعينا به هو بالتأكيد فى حالة غير كاملة وغير مرضية، وحيث تفترس العديد من المخلوقات الحية بعضها البعض هذا إذا أضفنا الزلازل والفيضانات والقحط والعواصف التى يمكن أن تدمر مئات الآلاف من الأرواح وتدمر عمل الإنسان، الأمر الذى يلحق مظاهر عدم الكمال فى الكون. كل هذا يجب أن يدفعنا إلى أن نناضل من أجل أن نضيف إلى الكون وأن نكمل البيئة الطبيعية وأن نستبدلها جزئيًا ببيئة من صنع الإنسان.

غير أن توينبى لم يكن ليتصور أن سعى الإنسان لتحقيقه لأهدافه فى الحياة لن يكون بلا معوقات أو عقبات، كما أنه لابد أن يكون هناك ثمن يدفعه ويتحمله وهو يحاول تحقيقها فما هى هذه العقبات وما هو الثمن الذى يدفعه الإنسان وهو يحاول مواجهتها؟

يقول توينبى أنه إذا كان يرى أهمية محاولة استكمال الإنسان للبيئة الطبيعية ببيئة من صنعه فقد كان ذلك على حساب أنه أصبح عبدا لهذه البيئة المصطنعة والتى صنعها بنفسه، ومثل هذه البيئة الجديدة هى أكثر استبداد وإثاره للاضطراب النفسى من البيئة القديمة، وهذا التحول هو أحد أسباب عدم الاستقرار والصراع والعنف الذى يسود فى الوقت الحاضر وكذلك الإحباطات المتبادلة للإرادات البشرية. ويعتبر توينبى أن من بين البيئات التى يراها، تُقَدم اليابان أبرز الأمثلة على هذا التحول من البيئة الطبيعية الى البيئة التى صنعها الإنسان وآثارها، وأن ما يحدث فى اليابان يعطى صورة عن ما سوف يجرى على نطاق عالمى. غير أن توينبى يعتبر أن العالم قد اختبر فى تاريخه مثل هذه التحولات الثورية، وأن البشرية قد استطاعت أن تستوعب وأن تتغلب من قبل على هذه التغيرات التى حدثت بمثل هذه السرعة وهذه الحدة، وهو ما يمثل مصدر عزائنا وأملنا فى أزمة العالم المعاصرة.

ويعتبر توينبى أن أكثر المظاهر التى تثير الدهشة فى التغيرات الثورية فى عصرنا هى الزيادة فى الثورة المادية التى تحققت أساسا نتيجة لتطبيقات العلم أى التكنولوجيا. فى هذا فإن التكنولوجيا المخططة علميا كانت ناجحة بما يفوق التوقع، إلا أن المفارقة فى هذا أن ذلك النجاح لم يزد من سعادة الإنسان. حقيقة أنه منذ بداية المدنية لم يتم توزيع الثروة توزيعا متساويا، إلا أن عدم المساواة هذه لم يتم التغلب عليها حتى بعد تحقق الثورة الصناعية والوفرة المادية التى نتجت عنها ، واليوم تقف الولايات المتحدة كأقوى دولة بين الدول الصناعية بمستوى حجم إنتاجها، ولكن حتى فى هذه الدولة فإن ٠,١ وربما ٠,٥ السكان مازالوا فقراء بشكل تعيس ولا يلقون الرعاية، ومازالت البلدان التى يتمتع سكانها أو جزء منهم بالغنى، أقلية، ومازال ثلاثة أرباع سكان العالم تتكون من فلاحين ومازال مستوى معيشتهم المادى ليس أعلى كثيرا من مستوى العصر الحجرى.

ويضيف توينبى إلى مظاهر المفارقة بين ما تحقق من ثروة مادية وبين عائد هذه الثروة فيما يتعلق بسعادة الإنسان الحقيقية، فيقول إن الأقلية من الجنس البشرى التى أصبحت اليوم غنية قد اشترت ثروتها بثمن عالٍ من وجهة نظر افتقاد الحرية وافتقاد السعادة، فالعائد فى عصر ما قبل التاريخ كان أكثر حرية مما خلفه فلاح العصر الحجرى.. ولكن الفلاح على الأقل مازال يجد متعة فى عمله فهو يحب محصوله وحيواناته المنزلية، والصانع اليدوى بالمعنى الحرفى من صنع الأشياء بيده وليس بالآلة، يجد السرور أيضا فى عمله ويفتخر به وبأدائه بشكل جيد . ولكن العامل الصناعى فى مدنية اليوم، وكذلك من يقوم بعمل مكتبى، هو أقل حرية من سلفه حيث يشعر بالرتابة فى عمله، وافتقاده للشعور بأنه يؤدى شيئاً خلاقا، ولذلك فهو يلجأ إلى الاستجمام ويبالغ فى ذلك. والاستجمام هذا عبارة فى غاية الأهمية، والتى تعنى أن العمل بمعناه المعاصر يقلل من الجانب الخلاق فى العامل، ويجعله أقل إنسانية أو يجرده من إنسانيته، ولذا فهو يحتاج أن يستخدم وقته بعد انتهاء عمله لجعل نفسه إنسانا مرة أخرى، وقبل الثورة الصناعية كان العمل نفسه استجماما وتجديدًا، الأمر الذى لم يكن العامل يحتاج معه إلى الاستجمام فى وقت فراغه.

ووجه الحرج والصعوبة أمام الإنسان المعاصر وهو يواجه هذه المفارقة ، أنه حتى لو حاول أن يحرر نفسه من ضغوط التقدم العلمى والتكنولوجى الذى حققه، فسوف يعجز عن ذلك لسبب بسيط وهو أنه أصبح سجينا لهذا التقدم، فالزيادة السكانية التى تحدث فى العالم أو فى مناطق واسعة منه قد تؤدى إلى المجاعات، إذا ما حاولنا أن نعود إلى الأساليب القديمة فى العمل والإنتاج والتى وأن كانت أقل كفاءة إلا أنها كانت أكثر مجلبة للرضى والسرور الروحى. كما أنه بالنظر إلى الانفجار السكانى لن نستطيع أن نهرب من حياة المدن أو العمل المكتبى أو عمل المصنع الذى حكمنا به على أنفسنا بالثورة الصناعية، الأمر الذى يحتم علينا أن نقبل نمط حياة المدن الذى قررناه لأنفسنا ، ولكن ما يجب ويمكن أن نفعله هو أن نحاول أن نجعل هذا المصير محتملا بقدر ما نستطيع، فنحن لا نستطيع أن نوقف حياة المدينة ولا نستطيع أن نمنعها ولكن ربما نستطيع أن نجعلها أكثر إنسانية. إن المدن يجب أن تُخَطَط بشكل يجعل أحياءها مقتصرة على نفسها وبشكل يجعل من الممكن على الأطفال أن يذهبوا إلى المدرسة والزوجات والأمهات أن يتسوقن دون

أن يخاطرن بعبور طريق مملوء بالمركبات الآلية.

ويعتقد توينبى أن العالم فى عصرنا إنما يجرى تجريده من إنسانيته وبشكل يجلب الأسى والحزن، ولذلك فنحن فى حاجة لأن نضفى أو بالأحرى نعيد الإنسانية لتعاليمنا الأمر الذى يتطلب أيديلوجية جديدة وليس مجرد أيديلوجية تعليمية جديدة ولكى تكون هذه الأيديلوجية فعالة فإنها يجب أن تكون ذات نظرة فلسفية أو دينية جديدة، تغطى كل جوانب الحياة وتتضمن تغييرا فى مثلنا يستوجب معه تغيير فى نظام أولوياتنا وهذا هو الأمر الهام، ذلك لأننا فى الوقت الحاضر نعطى أولوية كبيرة جدا لنجاحنا فى تحقيق الثروة والقوة، ولكن هذا النجاح لا يعطينا الرضا بل ويقربنا من الخطر، ونحن نشترى هذه السلع Commodities ويسميها توينبى سلعا عن عمد، لأنها أشياء مادية على حساب الافتقار للسعادة والخلاف بين بعضنا البعض، ويورد توينبى عبارة الشاعر الإنجليزى بوب فى بداية القرن الثامن عشر "إن الدراسة الصحيحة للبشرية هى دراسة الإنسان"، ويعتبر أنه على حق بالتأكيد، إذ يجب علينا أن ندرس الإنسان بهدف أن نجعل أنفسنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض أفضل.

كما يستشهد توينبى بما ورد فى إحدى محاورات أفلاطون التى قدم فيها سقراط وجعله يقول: حين كنت صغيرا كنت مهتما بالفلسفة السارية فى هذا الوقت، والتى كانت تدور حول العلم الطبيعى: الفيزياء، والفلك، والبيولوجيا، ولكن سقراط واصل قوله بأنه بدا يتحقق أن الشيء المهم فى الكون هو البشر، وليس طبيعتهم الحيوية أو تحركات النجوم أو العناصر الكيماوية، وهكذا، فما هو مهم هو الروح الإنسانية، ولهذا فقد قرر سقراط أن يتحول من دراسة الطبيعة غير البشرية وأن يدرس لماذا يفعل الإنسان الخطأ، فى الوقت الذى يعلم فيه ما هو الصواب، وأن يدرس هذا ليس فقط من قبيل الفضول، وإنما من أجل أن يعين نفسه وزملائه من البشر لكى يصبحوا أفضل مما هم عليه.

ويعقب توينبى إن هذا التحول فى اتجاه سقراط هو حقيقة تاريخية، وإنها على درجة كبيرة من الأهمية، وقد كانت حقا نقطة تحول ليس فقط فى الفكر اليونانى القديم، ولكن أيضا فى الأخلاق والحياة اليونانية القديمة. وعلى هذا يتمنى توينبى أن يرى شخصيات معاصرة مماثلة لسقراط، لكى تعيد توجيه العالم الحديث

لا لكى تبعده تماما عن العلم والتكنولوجيا، ولكن لكى تجعله يعطى أولوية لدراسة نفوسنا البشرية. ويؤكد توينبى أن السبب فى أن العالم فى هذه الحالة الخطرة ليس بسبب فشل العلم والتكنولوجيا، وبعضها ذات فائدة فعالة وأدوات قوية، وإنما لأننا لا نملك القوة الروحية أو الفهم الخير لاستخدام هذه الأدوات بالشكل الصحيح، الأمر الذى يخشى معه أننا قد نستخدمها لتدمير أنفسنا.

ويواصل توينبى هذا التصور بقوله إنه إذا افترضنا أنه فى الجيل القادم توصلت أفضل العقول والأرواح ذات البصيرة إلى نفس ما توصل له سقراط من نتائج، وأنهم سوف يستخلصون أن أهم المهام العاجلة على جدول أعمال البشرية ليس دفع العالم إلى مزيد من التقدم فى العلم والتكنولوجيا، ولكن إغلاق الفجوة الأخلاقية أو على الأقل جعلها أقل اتساعا مما هى عليه. ويعتقد توينبى أن هذا ليس فقط ممكنا ولكنه محتملاً، ويلاحظ إنه قد بدأ بالفعل بعض الطلاب فى جامعات الولايات المتحدة بعد تخرجهم يرفضون عروضا لوظائف مغرية ماديا فى الشركات، ويتطلعون بدلا من هذا إلى مستقبل يرون فيه قيمة اجتماعية وروحية أعظم للبشرية وإرضاءً نفسيا أكثر لهم من مستقبل يتبعونه، لا من أجل ذاته، وإنما من أجل المال الذى يحققه، فإذا ما سادت هذه الموجة الجديدة من القيم فسوف يزدهر الدين والفن ويضعف العلم والتكنولوجيا، والتى لدى البلدان الغنية أكثر من الكفاية منه ومن القوة المادية.

وإذا كان توينبى قد ركز حتى الآن على تأثير التكنولوجيا على الجانب الروحى فى الإنسان بل وربما على تجريده من إنسانيته، فإنه يتجه بعد ذلك إلى مناقشة الأسئلة التى تتساءل عما إذا كان الدين يستطيع أن يقدم الدواء الواقى من هذا الأثر، وعما إذا كان الإنسان يستطيع أن يعيش بدون دين، وما إذا كانت الأشكال القائمة منه سوف تستمر فى الوفاء بحاجات الإنسان الروحية. وبداءة يصر توينبى على اعتقاده بأن العلم والتكنولوجيا لا يستطيعان أن تقدما بدائل للدين أو إشباع حاجات الإنسان الروحية. ويفسر توينبى ذلك بأنه تاريخيا نشأ الدين أولاً ثم نما العلم من الدين ولم يحدث أبدا أن استطاع العلم أن يحل محل الدين أو يبطله وهو لن يحل محله أبدا، فالعلم يتطلب إجابات محددة لاخلاف عليها للأسئلة التى يطرحها ، ولكن الأسئلة ذات الأهمية الأعظم لاهتمام البشر لا يمكن الإجابة عليها

بأى درجة من اليقين. ويعتقد توينبى أن السبب فى أن العلم قد نجح فى الإجابة على أسئلته أن الأسئلة التى يطرحها ليست هى أكثر الأسئلة أهمية، ويوضح توينبى أنه فى إشارته لحدود ما يستطيع العلم عمله فإنه لا يقلل من شأن ما أنجزه العلم فى مجاله.

ويناقش توينبى اتصالا بذلك ما يعتبر أنه مشكلة الإنسان الرئيسية ألا وهى أنانيته selfishness وتركيزه على ذاته Self Centerdenss الأمر الذى يعتبره خطأً ثقافيًا، ذلك لأنه ليس هناك فى الحقيقة مخلوق هو مركز الكون، وهو أيضا خطأ أخلاقى لأنه ليس لأى مخلوق حى الحق لأن يعامل زملاءه من البشر والكون والله وكأنهم موجودون لمجرد خدمة متطلباته.

ومشكلة الإنسان الرئيسية تلك هى التى جعلت أعظم الفلاسفة والديانات معنية أولا وأخيرا بالتغلب على الأنانية، وعند توينبى أنه فى النظرة الأولى قد تبدو البوذية والمسيحية والإسلام واليهودية مختلفة جدا عن بعضها البعض، ولكن من ينظر تحت السطح سوف يكتشف أنها جميعا تتجه فى الدرجة الأولى نحو النفس والروح الفردية الإنسانية وتحاول حثها على التغلب على تمركزها حول ذاتها وتقدم الوسائل لتحقيق ذلك، كما أنها جميعا تتوصل إلى نفس العلاج ألا وهو أن الأنانية يمكن التغلب عليها بالحب.

ويعود توينبى إلى ما يعنيه بالفجوة الأخلاقية Morality Gap وعلاقتها بالدين ويقول إن ما يعنيه أساسا بالأخلاقية هو مستوى السلوك المطلوب من الإنسان ككائن اجتماعى فى علاقاته مع زملائه من البشر، وأنه من أجل أن يكون فى علاقة صحيحة مع شيء خارج نفسه فإن الكائن كما رأينا عليه أن يتغلب ويعلو على أنانيته وفرديته، وهذا هو المطلب الأول والأساسى الذى طالبه به الدين وقد كان هذا هو السبب فى أن كل دين يتضمن - بين أمور أخرى - قانونا وقواعد للسلوك الأخلاقى، والبشر على علاقة دائمة ومباشرة فيما بينهم أكثر من علاقاتهم مع ما هو خارج الكون، وعلى هذا فإن المطلب الأخلاقى يواجه البشر بشكل مستمر ودائم فى حياتهم اليومية أكثر مما يحمله الدين ولكن متطلبات الأخلاق والدين تعتمد على بعضها البعض، والرابطة بينهما أن كلا منهما يتطلب إنكار الذات والتضحية بها إذا ما تطلب الأمر.

غير أن ما يطالب به الدين والأخلاق الإنسان من نكران الذات والتخلى عن الأنانية لا يعنى فى نظر توينبى أن على الإنسان أن لا يبذل مافى وسعه فى كل وقت كى يدافع عن حريته الفردية فى الاختيار ضد كل محاولات تجريده من هذه الحرية من جانب زملائه من البشر الذين يمسكون بالسلطة والذين تعنى السلطة بالنسبة لهم اختيارهم لأنفسهم إلى جانب اختيارهم للآخرين، ويخشى توينبى أن الطابع الجماهيرى والمعقد لمجتمع اليوم وأعداده الكبرى سوف يساعد من يهمهم تجريد الفرد من حريته فى الاختيار خاصة وأن معظم الناس - فيما عدا قلة قليلة - لديهم تعطش للسلطة حين تتاح لهم فرصة الحصول عليها. يضاف إلى ذلك أن المجتمع المعاصر وظروفه يساعد كثيرا على إضعاف الطابع الشخصى خاصة فى المواقف التى تضعف فيها العلاقات الشخصية ، فالتصاعد الراهن فى العنف والقلاقل فى العالم كله تبدو بشكل أكثر وضوحا فى مواقف تتضارب فيها الصلات الشخصية والحوار الشخصى، وهو ما يتضح فى حالة الحرب فنحن لا نستطيع أن نسيء معاملة أو قتل زميل لنا من البشر نقابله وجها لوجه وبسهولة وضمير مستريح، على عكس ما إذا كنا لم نراه أو نعرفه أو نفكر فيه كعدو. كما يبدو أثر التخلى عن الطابع الشخصى فى الحياة اليومية فى مجال التعاملات التجارية والمؤسسات الكبيرة بما فى ذلك الجامعات الكبيرة التى يلتقى فيها أفرادها بصعوبة ومن ثم لا تتوفر لهم فرصة كبيرة لفهم مشكلات واحتياجات بعضهم البعض.

ويتصور توينبى أن التطور التكنولوجى وأدواته يساهم فى التقليل من حرية الإنسان فى الاختيار الحر وتجعله أكثر عرضة للانصياع والخضوع لما تختاره وتقرره له المؤسسات الأخرى بما فيها الحكومات ، ويضرب توينبى مثلا على ذلك بالتليفزيون الذى يجعل مشاهديه أكثر سلبية وأقل قدرة على التمييز بين ما هو حقيقى وصادق وما هو ليس كذلك... وهو فى هذا يصبح أقل حرية فى الاختيار من قارئ الكتاب مثلا، وعلى هذا يصبح مشاهد التليفزيون مهيأ لكى يقبل ما تريد المؤسسات له أن يقبله، وقد كان مما اشتكى منه بعض الفرنسيين من نظام ديجول احتكار الحكومة للتليفزيون الذى يجعلهم يرون ما يريد ديجول أن يروه وأنهم بذلك يُجَردونَ من وسائل رؤية الحقائق بأنفسهم وأن يقرروا بأنفسهم ما يريدون فعله.

كذلك يشير توينبى إلى دور الكمبيوتر فى التقليل من قيمة شخصية الأفراد، حيث يحرمهم من إمكانية السيطرة على ما تطالبهم به الوكالات الخاصة أو

السلطات العامة كالضرائب مثلا بحجة أن كل هذا قد تقرر عن طريق الكمبيوتر وبرامجه. كذلك ساهم التقدم التكنولوجى وأدواته فى تمكين الحكومات والمؤسسات من تجميع كمية ضخمة ودقيقة من المعلومات حول نشاطات وحياة الفرد ووجهات نظره، الأمر الذى أصبح يشكل تهديدا غير مسبوق لحريات الأفراد .

غير أنه مع تأكيد حاجة الإنسان لحقه فى الاختيار الشخصى فإن توينبى فى نفس الوقت ينبه إلى حقيقة أن البشر لا يستطيعون الحياة فى مجتمع دون أن يتقبلوا قدرا من النظام سواء فرضه الإنسان على نفسه أو كان مفروضا من الغير من أجل صالح المجتمع، والأفراد أنفسهم، تماما مثلما يجب أن يقبل سائقى السيارات نظاما يفرضونه على أنفسهم أو تفرضه عليهم السلطات ، فبدون مثل هذا النظام فإن الطرق التى تحمل مركبات عالية السرعة والقوة سوف تتحول إلى مصيدة للموت.

مصادر توينبى الفكرية

جاء ميلاد توينبى عام ١٨٨٩، أى قبل نهاية القرن التاسع عشر بأحد عشر عاما، وبذلك يكون قد نشأ فى مناخ يتسم بالثبات والاستقرار ويستمد أساسه من الإنجيل والكلاسيكيات اليونانية والإغريقية. وقد فاز توينبى فى بدء حياته الدراسية بمنحة داخلية وأتاحت له قراءة الكلاسيكيات، وتلاها منحة أخرى فى جامعة أكسفورد؛ حيث توسع فى قراءاته الكلاسيكية، والتى نال عليها درجة الامتياز وفى نهاية عام ١٩١١، وكان قد بلغ عامه العشرين، شرع توينبى فى جولة لمدة ٩ شهور إلى اليونان، راجلا على الأقدام فى كريت مشاهدا ودارسا لآثارها التاريخية. وكانت هذه الرحلة بداية لأحد العيون التى سوف يستخدمها توينبى للعثور على مادته التى سيكتب منها دراسته عن التاريخ، وهى عين المسافر، والتى مكنته من أن يرى الحضارات فى مواطنها الإنسانية وحملته إلى اليونان دارسا للهيلينيه ولتركيا دارسا للمجتمع العثمانى وجعلته أيضا يلقى نظرة الطائرة على حضارات الشرق الأدنى، والمجتمعات الإيرانية والبابلية والحيثية وزار اليابان وكوريا والصين والهند لدراسة المجتمع الهندوسى، وزار - وإن كان على نحو سريع - روسيا لدراسة المجتمع المسيحى الأرثوذكسى القديم، وعين المسافر تلك هى التى ستضفى الحيوية على وصفه للحضارة، والتى ستميزه عن غيره من زملائه المؤرخين الذين لم يزوروا أبعد من مصر "والشرق غير المتغير".

وإذا كان السفر ورؤية الحضارات فى ينابيعها الأولى، كانت العين الأولى والمباشرة لتوينبى وهو يدرس الحضارات العالمية الأولى - التى لم يشارك فيها لمرضه كجندى، لكى يجرى مسحا للمسرح الدولى المعاصر. وظل يفعل هذا بشكل دائم ومتواصل، واختياره محررا وكاتبا للأجزاء الضخمة السنوية لما أصبح يعرف Survey of InterNational Affairs، التى كانت تشرف عليها وتصدرها دار Catham House، وناشرا لعدد من المقالات حول مجالات اهتمامه فى العلاقات الدولية، وبعد عودته من مؤتمر باريس عام ١٩٤٦ بدأ فى تحرير تاريخ الحرب العالمية الثانية، وقد جاءت صفحات هذا العمل أكثر من صفحات عمله الضخم عن دراسة التاريخ، وقدمت له دراسته للوضع المعاصر مقياسا يقيس به مجتمعات أخرى كانت أساسية لمنهجه فى دراسة التاريخ.

غير أنه إذا كان لخبرة توينبى التى اكتسبها من تتبعه ومسحه للمسرح الدولى المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى، تأثيرها العميق على توينبى، إلا أنها كانت أقل عمقا بكثير من الأثر الذى تركته فيه الحرب ذاتها. فقد كان للحرب العالمية الأولى أثر عميق على العقل الغربى، وشأن غيره من المثقفين، أصابت الحرب توينبى بخيبة أمل كبيرة، وانحدارا لمعنوياته، وخلقت لديه شعورا ممضا بأن الحضارة الغربية قد فقدت حيويتها ودخلت فى مراحل الانهيار والتفكك وبدت له أنها حضارة هشة قابلة للفناء، وأن إنجازاتها وإنجازات الرجل الغربى التى قد تبدو ضخمة ليست بعيدة بأكثر من خطوات من حالة البربرية، وبدا له العالم المنظم المسالم والعقلانى الذى عرفه قبل الحرب قد تصدع، وجعلته ظروف الحرب وبشاعاتها يتساءل عن كيف يستطيع المرء أن يتحدث عن حرمة الفرد وقد أصبحت أوربا مقبرة، أو عن أولوية العقل وقد سمحت أوربا للمذابح أن تدوم لسنوات، أو حول التقدم المستمر والكمال الإنسانى فى الوقت الذى استخدم فيه الرجال المتحضرين مواهبهم وقدراتهم التنظيمية لذبح الملايين، وهكذا كانت مذبحة الحرب العالمية الأولى التى لا معنى ولا عقل، فيها أكبر الأثر فى دفع توينبى إلى الاعتقاد أن الغرب يعانى من أزمة روحية عميقة، وبدا يدرك أن المؤرخ جيبون Gibbon كان مخطئا فى اعتقاده أن الغرب قد لا يعانى نفس المصير الذى عانته روما. قال توينبى فى هذا :

لقد كنت حتى الأيام الأولى من أغسطس عام ١٩١٤ أتفق مع جيبون. ولكن الكارثة التى لم أتنبأ بها، فتحت عينى فجأة على الحقيقة، وتصدع الوهم الذى عشت عليه بأنى مواطن محظوظ فى عالم مستقر، تصدع بفعل الصاعقة ، ومنذ هذه اللحظة رأيت العالم بعيون مختلفة، ووجدت أنه ليس العالم الذى تصورته حتى هذه اللحظة بوهم وبلاهة.

كذلك منحت تجربة الحرب الأولى توينبى إحساسا بالرسالة، كان هذا نتيجة إعفائه من التجنيد بسبب ظروفه الصحية، فاعتبر نفسه محظوظا، وأنه قد تفادى الحرب التى أدت بأرواح نصف زملائه فى الدراسة، ومن ثم اعتبر أن حياته هى هبة يجب أن تُستخدم لخدمة البشرية. وكتب يقول "كلما طال عمرى كلما ازداد حزنى وغضبى على الاقتطاع الشرير لكل هذه الأرواح، وكانت كتابة دراسة التاريخ أحد الاستجابات للتحدى الذى وجهه لى إجرام الحرب الذى لا مفسر له"...

والواقع أن توينبى فى صدمته فى الحضارة الغربية وأزمتها الروحية، لم يكن بمفرده، فقد شاركه فى ذلك، وفى التحول الذى حدث فى فكر ونظر العديد من الأوربيين ومفكريهم الذين فقدوا الثقة فى حيوية هذه الحضارة بل وأخذ بعضهم بحتمية سبنجلر، والاعتقاد بأن الاضمحلال Decline لا رجعة فيه، وأن السقوط وشيكا، وعلى النقيض من التفاؤل الذى ساد فى القرن ١٩ والعلمانيين الذين تحدثوا بتوقد عن المستقبل ، انشغل المثقفون فى القرن العشرين بظاهرة الاضمحلال والتفكك ومثلما أشار هانز كون Hans Khon فإن الأزمة كانت شاملة لأنها تتضمن "أسس الغرب الثقافية، ونظرته الروحية ونظامه الاجتماعى وأشكاله السياسية ، وبناءه الاقتصادى وهو ما يعرض للخطر بقاء هذه الحضارة، التى بدت آمنة فى القرن التاسع عشر".

وبشكل أكثر تحديدا، فإن الأزمة التى أدت بتوينبى، وبالعديد من المثقفين، أن يفقدوا نقاءهم الفكتورى ويتنبأون باضمحلال الغرب، كانت فى افتقاد العقل الغربى للثقة بل وفى الإنكار الواعى لتقاليد عصر التنوير فى العقل والحرية. وقد جاءت أزمة الثقة هذه نقيضًا لروح التفاؤل التى سادت بعد الثورة الفرنسية وكان كوندرسيه رمزا عليها حين تنبأ "بأن الوقت سوف يجىء، حين ستشرق فيه الشمس فقط على رجال أحرار لن يعرفوا سيدا آخر غير العقل.. "أما الحالة العقلية لما بعد الحرب فقد تبدلت هذه النظرة المتفائلة بنظرة متشائمة لخصها بول فاليرى بقوله " إن كل أسس عالمنا قد تأثرت بالحرب.. ولكن بين كل هذه الأشياء المجروحة كان العقل.. لقد تعرض العقل حقا لدرس قاسٍ، تسمع شكواه فى قلوب الرجال المثقفين وهو يشكك ويصدر حكما حزينا على نفسه".

إلى جانب هذه الخبرات العريضة التى نجمت عن الحرب العالمية الأولى، بوجه خاص، ورؤيته لاقتراب الحرب الثانية، وبروز الفاشية والنظم الشمولية، والشلل الذى أصاب الليبرالية، وطغيان الجانب المدمر للتكنولوجيا ، تأثر فكر توينبى كذلك بعدد من المؤرخين والمفكرين سواء فى منهجه لدراسة التاريخ أو لمضمون دراسته.

من أهم من تأثر بهم توينبى وكان مدينا لهم فى قراره دراسة تاريخ العالم، Polybius والذى حصل منه "على وجهة نظر عالمية للتاريخ والتى أثارت انتباهى

واهتمامى طوال حياتى"، فقد حاول بوليبوس شرح مسيرة روما نحو إمبراطورية عالمية، وذلك بفحص التاريخ على نطاق واسع، واعتبر أن من المستحيل فهم كيف اختزل عالم البحر المتوسط إلى سلطة روما بكتابة روايات منعزلة عن نشاطات روما فى أسبانيا أوسيسلى، فتاريخ روما يجب أن يفحص على نطاق عالمى شامل".

ونظرا لما غرسته فيه صدمة الحرب العالمية الأولى من حاجة عميقة لفهم ومواجهة الأزمة التى حلت بالغرب الحديث، فقد قربه هذا من فكر : Thucdides وجعله يقارن بين تحطيم اليونانيين القدماء أنفسهم بالارتباط المبالغ فيه بنظام المدينة City-state وبين تكريس الغرب المعاصر للدولة القومية National state الأمر الذى يمكن أن ينتج عنه أزمة مماثلة.

كذلك تعلم توينبى من أفلاطون "أن أخجل من استخدام خيالى وكذلك ذكائى، وقد علمنى أنه حين أكون فى رحلة عقلية فإنى أجد نفسى عند الحدود العليا الموصلة إلى العقل، وأن لا أتردد فى أن أدع خيالى يحملنى على أجنحة أسطورية إلى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى. وحيث لم يكن أفلاطون أبدا فخورا جدا أو خجولا جدا فى استخدام الأسطورة من أجل استكشاف مناطق الكون الروحى فيما وراء نطاق العقل، فإن فى ذلك كان تواضع وجرأة عقل عظيم. ومثل أفلاطون اعتمد توينبى على الومضات المفاجئة للبصيرة وعاد إلى الأسطورة والاستعارة لتسجيل نقاط حاسمة فى رؤيته للتاريخ.

أما يونج Jung فقد عبر توينبى عن سعادته لأنه عاش لكى يرى "منابع الوعى الباطن للشعور والنبوة تستعيد مكانها المشرف فى العالم الغربى من خلال عبقرية يونج".

كذلك كان توينبى مدينا بشدة للفيلسوف برجسون الذى قرأ أعماله بشراهة خلال أيام دراسته، ويأتى تأثر توينبى بفلسفة برجسون من حقيقة أنه رغم ارتباطه فى الأصل بالمذهب الوضعى Positivism إلا أن برجسون كان أبعد ما يكون عن الادعاء الجازم بأن العلم يستطيع أن يوضح ويشرح كل شىء ويحقق جميع حاجات البشرية، وتأكيده على أن التركيز على الذكاء وحده إنما يضحى بالدوافع الروحية والخيال والحدس ويجعل من الروح مجرد شىء آلى ، واقتناعه بأن أساليب العلم لا

تستطيع أن – تكشف عن الواقع النهائى ultimete Reality وأن على الحضارة الغربية أن تدرك حدود المذهب العقلى العلمى، وأن منهج الحدس Intution والذى يجاهد العقل بواسطته من أجل علاقة متأصلة مع الشىء وتتوحد معه يستطيع أن يقول الكثير عن الواقع من منهج التحليل الذى يستخدمه العلم، كما أن النفاذ إلى الشىء من خلال خبرة حدسية هو الطريق إلى الحقيقة التى لا تستطيع الحصول عليها من خلال مقاييس العلم وحساباته . وقد أصر برجسون على أن منهج الحدس – رغم عدم استناده على إجراءات علمية – هو الطريق الأفضل للمعرفة، فالعلم ليس هو الطريق الموجه للحقيقة، كما أن العقل ليس مجموعة من الذرات تعمل وفقا لقواعد ميكانيكية، وإنما هو تيار من الوعى مدفوعا بطاقات حدسية غير عادية.

وشأنه شأن برجسون كان لدى توينبى دافعا عميقا لفهم الحياة بشكل شامل، ومثله عمل توينبى على أن يعمل العقل بالحدس الأمر الذى يمكن من خلاله الوصول إلى فهم أكثر للشخصية الإنسانية والحياة البشرية . كذلك مثل برجسون تطلع توينبى إلى التواصل مع القيم العليا التى تقع وراء الخبرة المباشرة مظهرًا بعض خصائص الصوفية الدينية. كما اتفق توينبى مع برجسون على أن البشر لا يستطيعون أبدا التغلب على قبيلتهم البدائية والتقدم نحو وفاق عالمى ما لم يبرهنوا على ولاء مشترك لله.

وثمة تشابهات عديدة بين "مدينة الله" التى كتبها القديس أوغسطين والتى كتبت حين كانت روما فى حالة احتضار ، وبين دراسة توينبى عن التاريخ والتى كتبت حين كان الغرب على وشك الانهيار، فمثل أوغسطين قاس توينبى التقدم بالتقدم الروحى وتحرك الإنسان قريبا من الله واعتباره أن العيش بدون الله ينتهى بخراب الإنسان، هذا فضلا عما نراه من أن معظم عمل توينبى قد تخلله شك أوغسطين.

أما الرابطة القوية التى جمعت بين توينبى فقد كانت مع المؤرخ والمفكر الألمانى سبنجلر Oswald Spengler وهى الرابطة التى نشأت من اهتمامهما المشترك بالحضارات وتتبع نشوئها وسقوطها . عبر سبنجلر عن اهتمامه بعمله "اضمحلال الغرب" The Declime of the West. الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٧ ثم طبعته المعدلة عام ١٩٢٣. أما توينبى فقد ضمن اهتمامه بالحضارات

وتاريخها ومظاهر تطورها فى عملـه "دراسـة التـاريخ" Study of History الـذى بدأت أجزاءه الأولى تصدر عام ١٩٢٧ واكتملت أجزائها الاثنى عشر عام ١٩٥٤.

هذا الاهتمام المشترك والذى سبق فيه سبنجلر توينبى بقرابـة عشـر سـنوات فى التعبير عنه وتسجيل وجهة نظره فيه هو الذى جعل شبح سبنجلر يحـوم دائمـا فوق توينبى. وهو الذى جعـل مـؤرخ آخـر هـو الأسـتاذ : H. Mitchell يخصـص دراسة يقارن فيها بين سبنجلر وتوينبى، ويبحث فى جوانب الالتقاء والاختلاف بيـن رؤيتهم للحضارات، وأهم من هـذا القوانيـن التـى تحكم تطورهـا مـن النشـوء حتـى الفناء. وبداءة يلاحظ الأستاذ ميتشيل أن القارئ الذى قرأ بإلحاح واسـتمرار لايكـل كتاب سبنجلر "اضمحلال الغرب" وأجزاء عمل توينبـى "دراسـة التـاريخ" قـد يكـون معذورا إذا ما وجد نفسه فى نهاية قراءته غير قادر على التنفس، وأنه لم يبقى لديـه جهد لمزيـد مـن التركيز وخاصـة فـى عمـل سـبنجلر حيـث يشـعر المـرء بـالذهول والارتباك. ولا شك أن الخطأ يكمن فى القارئ الذى حاول تحقيق الكثـير فـى وقـت قصير جدا فكلٍ من سبنجلر وتوينبى يجـب أن يُقَـرأوا بطرقـة متمهلـة، وعلـى مـدى شهور وليس أسابيع بل وربما بتكريس سنوات لكلٍ منهمـا وبالتـأمل الطويـل فيهمـا فكليهما يثـير الاهتمـام بشـكل عميـق ويدفـع الفكـر، وكلاهمـا يمتلـك معرفـة واسـعة ويكتب باسهاب ويشكل منها لمن يتابعه.

ويعتبر الأستاذ ميشيل أنه فى الوقت نفسـه الـذى قـد يكـون فيـه مـن المبالغـة القول إنه لا يمكن فهم توينبى حتى يتمكن المرء من قراءة واستيعاب سبنجلر، فإنـه من الحق القول إن سبنجلر هو شرط أولى لا غنى عنه لتوينبى فديـن الأول للثـانى واضح وملحوظ.

وإذا كان سبنجلر وتوينبى يجمعهمـا الاهتمـام بمولـد ومـوت الحضـارات، إلا أنهما يختلفان حول القواعد التى تحكم هذه العملية، فالحضـارات عنـد سـبنجلر تتبـع فـى تطورهـا النمـط الـذى يسـرى علـى الكائنـات الحيـة، فهـى تولـد وتمـر بمرحلـة النضـوج ثم مرحلة الوهن والهرم Senscence ثم تموت بعد ذلـك، أمـا توينبـى فهـو يرفـض هـذا، ويفضـل أن يطبـق علـى حياة الحضـارات ومـا تتعـرض لـه نظريتـه فىالتحـدى والاسـتجابة Challenge and Response : فـأى مجتمـع يواجـه تحديـا سواء من الطبيعة أو من مجتمع آخر فإنه بقدر استجابته لهذا التحدى يعتمد مسـتقبله

فإذا ما ارتفع فى هذا التحدى إلى مستوى المناسبة فسوف يتقدم نحو قمم أعلى وإذا ما فشل فى هذا التحدى فسوف يظل راكدا وربما ينكص ويتقهقر وإذا ما واجه أحد التحديات بنجاح فسوف يكون تحديا آخر وآخر. والسؤال هو إلى أى حد ستمتلك أى حضارة القوة الداخلية والطاقة الدافعة ELan vital بتعبير برجسون لمواجهة تحد بعد آخر وإذا ما استخدمنا تشبيه توينبى حول متسلقى الجبال : فإلى أى مدى يستقلون قبل أن تنفذ طاقاتهم ويهبطون منهكين إلى صخور مريحة على مقربة من الشاطىء لكى يحط عليهم الكسل والاسترخاء والذى يتركهم بلا تحد لما قد يواجههم من تحد جديد الأمر الذى يقودهم إلى الموت فى نهاية الأمر.

غير أنه رغم هذا الاختلاف بين سبنجلر وتوينبى إلا أن الأستاذ ميشيل يرى أن التأمل الدقيق سوف يكشف أن منهج كلا منهما فى معالجة المشكلة هو فى التحليل الأخير منهج واحد، فالميلاد عند سبنجلر يمثل التحدى عند توينبى، والنمو يمثل الاستجابة.

كما أن ثمة تشابها يميز عمل كلٍ منهما فيما يتعلق بالمدخل إلى فلسفة التاريخ فهو عند توينبى ما أسماه "بتألية الذات الزائله " The idolisation of efhemeral self فالحضارة تصل إلى قمة إنجازها وحيث لا تسطيع أن تذهب أبعد منها بعد أن استهلكت طاقتها الخلاقة وامتلأت بالارتياح لما حققته ووصلت فى تطورها إلى طريق مسدود. وطالما إنها لا تستطيع أن تتقدم بعد هذا فإنها لابد أن تتراجع أما سبنجلر فإنه يعبر عن هذا المصير بأنه بعد الصعود Crencendo يحل الهبوط Decreocendo وصفحات التاريخ مليئة بأمثلة من هذا المصير وهذا القدر المحتوم الذى حل على شعوب كانت تعتز بنفسها فى الماضى.

ويتساءل ميشيل عن رؤية كلٍ من توينبى وسبنجلر لمستقبل البشرية والحضارة الغربية بوجه خاص وعما إذا كان ثمة أمل مازال باقيا أمامها، عند ميشيل كان توينبى لا يرى أى أمل أمام البشرية وهو يرى أن الحضارة الغربية مقضى عليها بل إنه يذهب أبعد من هذا - فيقول "إنه إذا كانت البشرية سوف يصيبها الجنون بالأسلحة الذرية فإننى شخصيا يجب أن أتحول إلى الزنوج فى أواسط أفريقيا لإنقاذنا من الميراث الحالى للبشرية طالما أنهم وفقا لما يقوله علماء الأجناس عندنا يمتلكون مفهوما نقيا ونبيلا عن الله وعن علاقة الإنسان به". أما

سبنجلر وربما بسبب أنه كان يكتب قبل الحرب العالمية الثانية وقبل اكتشاف الأسلحة الذرية – فإنه لا يحمل هذه النظرية للتاريخ المحملة بتوقع الكارثة فى العالم – وبوجه خاص الحضارة الغربية – لا يتجه بالضرورة إلى الإنهيار التام والمفاجئ. وإنما نحو اضمحلال تدريجي ومتسارع بمرور الوقت والانحدار نحو السفوح من قمم وإنجازات الماضى العظيمة، فهو يرى أنه لم يعد للشعوب الغربية أى رسوم أو موسيقى عظيمة كما قد استهلكت إمكانياتهم فى فن العمارة عبر مئات السنين، وليس ثمة مستقبل للفن أو الموسيقى أو العمارة بل إنه أكثر يأسا فيما يتعلق بالعلوم والرياضيات، إنه يكفى أن نرى أن زمن رجال الرياضيات العظام قد ولى وأصبح هدفنا العام ينحصر فى مجرد المحافظة والتهذيب والاختيار بدلا من العمل الخلاق النشط العظيم".

على أن ميشيل يعود فيتحفظ على رؤيته تلك لفلسفة توينبى وسبنجلر ولمستقبل البشرية والحضارة الغربية ويعتبر أنه قد لا يكون من العدل بالنسبة لهما الاعتماد على مقتطفات من أعمالهم وملاحظاتهم قد تكون منعزلة عن سياقها العام. وقد يكون تشاؤم توينبى متأثرا برؤيته لأخطار الحرب الذرية بعد اكتشاف أسلحتها وإمكانيات تطورها كما أنه يمكن التماس العذر لسبنجلر أن يكتب كتابه قبل أن يتحقق هذا التقدم المدهش فى الرياضيات والعلم الذى تحقق فى السنوات الأخيرة. غير أنه مما يقلل هذا العذر أن سبنجلر قد وضع كتابه عن اضمحلال الغرب عام ١٩١٧ ثم ظهر فى طبعة معدلة عام ١٩٢٣ وكانت نظرية أينشتين فى النسبية قد أصبحت معترف بها الأمر الذى يمكن معه القول أنه مع عام ١٩٠٠ كان عقل سبنجلر قد أغلق أمام المفاهيم والأفكار الجديدة وبالنسبة له كانت شخصيات ما قبل هذا التاريخ من أمثال : Gauss, Helmboltz, Humbolatt هم السادة العظام الذين لن يتحقق بعدهم شيء كبير، كما أنه لا يمكن القول إن عمله كان عمل رجل عجوز ومتعب وبشكل يمكن غفرانه له فقد كان عمره ٣٩ عاما عندما انتهى من كتابه.

إذا كانت هذه هى مصادر توينبى الفكرية ومن تأثر بهم من مؤرخين ومفكرين فماذا عن توينبى نفسه؟ الواقع أنه إذا بحثنا عن إجابة على هذا السؤال من خلال عمل توينبى الأساسى الذى شغل معظم حياته الفكرية وهو دراسته عن

التاريخ، فإن شراح توينبى يعتبرون أن هذا العمل ليس إلا عملا من أعمال الكشف عن الذات Self Revelation ففى هذا العمل أودع توينبى كل شىء راه وسمعه وقرأه وتعلمه، ولم يكن بين هذه الحصيلة شيئا غير ذى قيمة وبحيث يصبح من غير المبالغة القول بأن هذا العمل هو تربية توينبى والتى بنيت وصدرت عن خبرة رجل إنجليزى من الطبقة المتوسطة تربى فى السنوات الأخيرة قبل عام ١٩١٤ وتغذى على التقاليد الكلاسيكية للمدرسة الإنجليزية العامة، ولم يكتب جملة واحدة لم تحمل أصداء وإيقاع الكتاب المقدس والأعمال الكلاسيكية فى التاريخ، والشعر والأدب التى قرأها بنهم منذ مدرسته الأولى فى وينشستر. والواقع أن نفس العناصر التى بنت مذهب توينبى هى العناصر المألوفة فى التعليم الإنجليزى الكلاسيكى، مثل مفهوم الحضارة التى تضم معا وحدات سياسية مختلفة برابطة عميقة وإن لم تكن متجسدة، وفكرة الانسحاب والعودة Withadrowal and Return للأقلية الخلاقة الشبيهة بأسطورة أفلاطون عن عودة الفلاسفة إلى الكهف ومفاهيم التناسق وخطر الخيلاء Hybris وكل تلك الدروس التى استخلصها نظار المدارس الإنجليزية من دراسة التاريخ وأدب – اليونان القديمة بل إن شراح توينبى لا يستبعدون أن بعض مفاهيمه مثل التى تخللت دراسته للتفاعل داخل الحضارات مثل Rout and Rally : الانكسار ولم الشمل من جديد، إنما هى صدى لما كان يحدث فى ملاعب وينشستر وحيث كان يواجه فريق المدرسة بشكل شجاع خصوما متفوقين ولكنه ينتزع فى النهاية تاج البطولة التى لا تستسلم.

وفى حوار أجراه مع ابنه Philip toynbee عام ١٩٦٣ : تساءل الابن عما إذا كان توينبى ينطبق عليه حكم ماركس الصارم بأن المرء هو نتاج طبقته، وعما إذا كانت طبقته الوسطى التى نشأ فيها فى نهاية القرن ١٩ قد أثرت فيما فكر وكتب. وقد أجاب توينبى بأن هذا، جزئيا صحيح وأمن على أن البشر جزئيا محكومين بالظروف الخارجية وبمصادفات وجود الأمان فى الزمان والمكان ولكنه احتفظ للإنسان ببعض المبادئ وبعض الحرية، فما يفعله الإنسان وما يحدث له هو نوع من التفاعل بين ظروفه الخارجية وإرادته الذاتية وفى هذا فإن بعض الناس أكثر حرية من أخرين بمعنى أن اختيارهم الشخصى له نطاق أوسع فى مواجهة الآثار التى تفرضها عليهم خلفيتهم الاجتماعية وعلى هذا ورغم ما قد تقبله مما

يقوله مفكرين مثل ماركس وفرويد وفيرزر والذين يحدون من حرية الإنسان فى الاختيار إلا أنه مازال ثمة منطقة لحرية الإختيار الانسانى ويفسر توينبى ذلك بأن الحياة البشرية هى نضال، فثمة منطقة للحرية وأخرى للضرورة والحدود بينهما ليست ثابته ومحددة وبعض الأفراد وبعض المجتمعات أكثر نجاحا من غيرهم فى خفض مساحة الضرورة ولكن هذا لا يتحقق بدون نضال صعب وهو مالا يجب التهاون فيه.

فى هذا الحوار كذلك أبدى توينبى عدم تأثره بالموسيقى وأسف على ذلك ولكنه يتأثر بالشعر خاصة الشعر اللاتينى واليونانى وأيضا الشعر الغربى الحديث وفى هذا فإن جوته هو شكسبير بالنسبة له ولا يعرف لهذا سببا إلا أنه قد أخذ به منذ أن قرأه فى المدرسة.

كذلك كشف توينبى عن أنه رغم عدم ولعه بالرواية إلا أنه قد قرأ للروائيين الروس وبسرور عظيم خاصة تولوستوى وبشكل أكثر من تورجتيف ودوستويفسكى ولكن ربما كان تورجنيف هو أعظم فنان بين الثلاثة ، ولكن دوستويفسكى هو أكثرهم إثاره للاهتمام والذى يرى الأشياء بعمق أكثر. على أنه بوجه عام فقد أعرب توينبى أنه لا يحب الروايات التاريخية وذلك أنه يريد للتاريخ أن يكون تاريخا حقا وليس تاريخا خياليا.

معنى الحضارة ونظام الحضارات

خبرة التاريخ وحدودها :

قبل أن نشرع فى النظر فى دراسة توينبى للتاريخ وفى جوهرها نظريته فى الحضارات وتتبعه لتطورها ولمراحل هذا التطور، سيكون مفيدا أن نتعرف على رؤية توينبى لأهمية دراسة التاريخ والخبرة التى تقدمها هذه الدراسة فى النظر إلى الحاضر وصياغة المستقبل ولمدى قيمه وحدود هذه الخبرة.

وبداءة يعتقد توينبى أن قضية مصير الجنس البشرى لا تشغل كثيرا عقول الناس وخاصة حين تبدو الحياة آمنة ومرضية وحيث لا يكون لديهم دوافع لأن يحدقوا طويلا فى المستقبل وأكثر مما تتطلبه الأهداف الآنية العملية. غير أن الناس يبدأون فقط فى الاهتمام الجاد بالمستقبل حين تبدو التوقعات حوله منذرة بالخطر. وباعتبار ما يعيشه البشر فى هذا العصر من قلق عميق ومؤثر، فإنه يصبح من الواجب أن نتساءل عما ستفعله بنا هذه الأزمة وإلى أين يقودنا وضعنا الراهن.

ويستطرد توينبى من هذا التساؤل إلى القول إنه طالما أن المستقبل يظل خافيا علينا حتى يحل، فإن علينا أن ننظر إلى الماضى بحثا عن الضوء الذى قد يتيحه لنا حول المستقبل . والخبرة Experience هى الاسم الآخر للتاريخ. فحين نتحدث عن التاريخ فنحن غالبا ما نفكر فى الخبرة الجماعية للجنس البشرى. وفى الحياة الخاصة مثلما هو الحال فى الحياة العامة فإن الخبرة تستخدم وتصبح موضع تقدير بوجه كبير حيث إنها تساعد حكمنا على الأمور ومن ثم تمكنا من أن نصل إلى اختيارات أحكم وقرارات أفضل. وفى كل الأوقات الطيبة والسيئة فإن علينا أن نخطط للمستقبل فى إدارتنا لشئوننا البشرية، ونحن نخطط للمستقبل بهدف التحكم فيه وصناعته وبالشكل الذى يخدم أهدافنا وبالقدر الذى نستطيعه وهذه المحاولة الواعية للتحكم فى المستقبل وصناعته إنما هى نشاط بشرى متميز وهى أحد الملامح التى تميزنا عن المخلوقات الحية الأخرى التى تشاركنا فى هذا العالم. فى هذه العملية يصبح من الواضح أننا لا نستطيع أن نخطط دون أن نتطلع إلى المستقبل الأمر الذى لا نستطيع أن نفعله إلا بالقدر الذى تضيئه لنا تجربتنا وهكذا فإن الضوء المستمد من الخبرة هو شىء له قيمته وهو المرشد الوحيد للتعامل مع المستقبل.

غير أن توينبى لا ينظر إلى خبرة التاريخ وقيمتها بشكل مطلق خاصة إذا كانت شئون البشر هى الحقل الذى ستطبق فيه هذه الخبرة، وحينئذ يحق أن نتساءل إلى أى مدى يمكن أن نثق فى المعلومات التى تقدمها لنا هذه الخبرة حول المستقبل وحول الشئون البشرية. فهل يقدم لنا الماضى – فى هذا الحقل – مثل هذه المعلومات الدقيقة والمحدودة حول المستقبل والتى يمكن – وفقا لدقتها وقوتها – نستطيع أن نتنبأ بثقة حول المستقبل وبأن هذه التنبؤات سوف تؤكد نفسها وتثبت الأحداث صحتها؟

ويعتبر توينبى أنه فى تعاملنا مع الطبيعة غير البشرية ، فإن هذا السؤال ليس مطروحا ذلك أنه على عكس الطبيعة البشرية فإن التحكم والتنبؤ الناجح فى هذا المجال هو شىء نلمسه ونمارسه كل يوم، فنحن نستطيع أن نجرى عملية كيماوية ونحن متأكدين من نتيجتها إذا ما أجريناها بشكل صحيح كما نستطيع أن نصنع آلة ونحن متأكدين أنها سوف تعمل، كذلك فإن مربى الماشية والمزارعين يضمنون نجاحهم لأنهم مثل عالم الفلك والمهندس والكيماوى يعملون جميعا فى ضوء التجربة. ومن الواضح أن النجاح فى هذه الميادين يرجع الى أن الطبيعة بشكل كبير أو صغير موحدة فى بنائها ومنظمة فى عملها ولهذا فإن قيمة الخبرة هنا تصبح تقريبا مطلقة وتمكننا من أن نتنبأ بنجاح.

على العكس من هذا فإنه فى ميدان الشئون البشرية فإن الخبرة تمكننا فقط من أن نخمن To guess. ففى هذا الميدان فإن ما حدث فى الماضى قد يحدث من جديد ولكن ليس حتما أن يعاود الحدوث، فالخبرة تخبرنا عن بديل أو بديلين لاحتمالات المستقبل ولكن أيًا ما تكشف عنه من احتمالات وبدائل ، فإننا لن نكون متأكدين أبدا أن البيان الذى ستقدمه لنا هو بيان كامل وشامل. وهكذا فإنه فى الشئون البشرية فإن الضوء الذى تلقيه الخبرة على المستقبل هو مرشد وموجه أقل جدارة بالثقة. وفى الحياة الخاصة فليس هناك شخص عاقل يتوقع أن خبرته الماضية سوف تمكنه أن يتنبأ بالمستقبل بدقة رياضية فالخبرة الشخصية قد تستطيع أن تحسن حاسة المرء على التخمين وهذا أقل ما تستطيع أن تفعله، والخبرة الجماعية التى ندعوها عادة بالتاريخ لا تستطيع أن تقدم لنا أكثر من ذلك.

فإذا كان حقًا أن مستقبل الشئون البشرية هو شيء لا يمكن توقعه، فهل يعني هذا أن نستخلص أن خبرة الماضي لا تقدم أى ضوء وأن دراسة التاريخ هو لذلك عمل غير مفيد؟ إن دارس الشئون غير البشرية الذين اعتادوا على النظام الصارم والقوانين المحكمة التى يعتمدون عليها فى مجالهم قد يقولون إن هذا شرط لا غنى عنه للدراسة الفعالة فى أى حقل ولذلك فإن دراسة الشئون غير البشرية هى شيء غير عملي . وقد نتفق على أنه من الصعب وجود علم للشئون البشرية إذا ما كنا نعنى المنهج الذى يقدم إمكانية تنبؤ معصوم من الخطأ ، ولكن أن نهجر دراسة التاريخ على هذا الأساس يعني أننا نذعن بشكل مبالغ فيه للشك العلمى. فليس من الضرورى للدراسة أن تكون عملية لكى تكون مضيئة ، فحيث يكون التنبؤ مستحيلا، فإن التخمين قد يكون له قيمة طالما جرى على أساس أننا ندرك حدود وكذلك قيمة الضوء الذى يلقيه الماضى على المستقبل حين يكون ميدان دراستنا هو الشئون البشرية.

ويروى توينبى أن أحد أساتذته القدامى قال له إن معظم الناس فى العالم ليس لديهم إحساس بالتاريخ، وأن الماضى لا وجود له بالنسبة لهم وأن أقلية ضئيلة جدا هى التى لديها وعى بالتاريخ، ورغم أن هذا كان تفكيرا مذهلا بالنسبة له عندئذ إلا أنه كان يصور الحقيقة وجعله يتساءل هل نسيان التاريخ وفقدان الذاكرة التاريخية شيء مفيد؟ ويستشهد توينبى فى هذا بالحالة الأمريكية حيث اندفع الأمريكيون إلى أخطاء جسيمة لتجاهلهم التاريخ، فقد تورطوا فى حرب فيتنام متجاهلين بشكل متعمد الخبرة الفرنسية وظنوا أن لديهم القوة والتكنولوجيا وطريقة الحياة الأمريكية التى سوف تجعل الخبرة الفرنسية غير ذات موضوع. وبالمثل فإن كثيرا من الفشل الأمريكى منذ الحرب الثانية يمكن إرجاعه لعدم النظر إلى الحاضر فى ضوء الماضى.

ويستخلص توينبى أن الحياة البشرية هى نقاش فى البعد الزمنى ، والأفعال الحالية تجرى ليس فقط فى توقع للمستقبل ولكن أيضا فى ضوء الماضى، فإذا ما تجاهلنا عن عمد وطمسنا الماضى فإننا نعيق بذلك أنفسنا عن القيام بأعمال تتسم بالذكاء فى الحاضر، وحين نفقد البعد التاريخى ونعتقد أن وضعنا اليوم هو وضع

فريد، وأن دروس الماضى ليس لها علاقة بنا اليوم، فإن هذا يعنى أننا نفتقد الإحساس بالواقع وخاصة بجوانب ضعف وحدود الحياة البشرية. كما أن فكرة أن عصرنا هو عصر فريد هو ضرب من الكبرياء القائم على وجهة نظر زائفة عن القوة وامتياز الحياة البشرية.

ويتذكر توينبى أمثلة من هذا التفكير فى الماضى، ففى عصر النهضة طرد باحثى ودارسى العصور الوسطى، وفى عهد اسكندر الفاتح منذ تاريخ اليونان القديم باعتبار أنه لا يستحق التفكير فيه. وتوحى هذه السوابق بأن الحافز لصنع بداية جديدة للتاريخ وتجاهل الماضى هو علامة على أن ثمة شيء خاطئ فى المجتمع، فحين يعلن شعب أن التاريخ لا يستحق أن يتذكر وأن الحاضر والمستقبل هما ما يجب أن يشغلا اهتمامنا فقط، فلابد أن يثير هذا قلقنا.

فإذا كانت هذه هى رؤية توينبى للتاريخ وأهمية دراسته والضوء الذى يلقيه على الحاضر والمستقبل وحدوده فما هو مجال الدراسة التاريخية عند توينبى ؟ وما هو المنهج الذى اتبعه فى دراسته للتاريخ وكيف اختلف فى هذا عن غيره من المؤرخين وميزه عنهم؟

لقد توافقت حياة آرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) مع أكبر انفجار فى الخبرة الإنسانية. وربما كان توينبى بين زملائه المؤرخين هو أكثرهم الذى اشتعل خياله بهذا الانفجار وبحدود رؤية الشئون البشرية، فحيث اكتفى أفضل المشتغلين بمهنة التاريخ بالتقاط بعض المظاهر الجزئية والتى لا تحمل إلا علاقة صغيرة بالأحداث التى يعيشونها، وحين كانوا يتحدثون عن دراسات تاريخية تعالج ظاهرة ذات دوام طويل، فإنهم فى هذا كانوا يحبون فى الوقت الذى كان توينبى يجتاز ويقطع عدة أميال وكان هو الوحيد الذى أقدم على منظور شامل يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى عرفها التاريخ حتى ما شهدته حياته من تكوين حضارة عالمية تعتمد على بعضها البعض وبشكل لا رجعة فيه. وقد يتجادل نقاد توينبى حول تفاصيل دراسته ومنهجه ولكن المرء لا يستطيع أن ينكر المجال الاستثنائى الضخم لعمله إلى الحد الذى جعل البعض يقول إنه فى الوقت الذى مازال غيره يعمل فى الأدوار الأولى، كان توينبى يساير رواد الفضاء وينظر إلى الأرض من القمر موجها سؤاله الشامل: ما هو مصير الحضارة التى نعيشها.

ويمكن إرجاع هذه النظرة الرحبة للتاريخ عند توينبى إلى تعليمه الكلاسيكى والذى أعطاه الاعتقاد بأن الشئون البشرية يمكن فهمها بوضوح حين تعالج فقط بشكل شامل وكدارس للكلاسيكيات تعلم أن يدرس الأدب والفن والفلسفة والسياسة والتاريخ لا كموضوعات منعزلة وإنما كوجوه لوجهة نظر متميزة عن العالم.

لذلك اعتبر توينبى أن المؤرخين الغربيين قد أخطأوا لأنهم تمركزوا حول ذاتهم بطرق مختلفة حيث تعاملوا فقط مع التاريخ الغربى أو لأنهم درسوا التواريخ الأخرى بالدرجة التى تتصل وتتعلق بالتاريخ الغربى ولأنهم فكروا فى أنفسهم على أنهم يقفون موقفا متميزا فى التاريخ يمكنهم من الحكم عليه وكأن التاريخ بشكل ما قد توقف على عالمهم الغربى . وهكذا نشأ شكل خاص من عبادة الذات التى خلقت خبايا أمام المؤرخين الغربيين حين كتبوا عن الغرب وأدى بهم ذلك إلى نوع آخر من العبادة وهى عبادة الدولة القومية Nation - state وحيث اتجهوا إلى التعامل مع تاريخها بشكل منعزل، أما توينبى فقد نظر إلى مفهوم الدولة القومية على أنه السجن الاجتماعى الذى سجنت فيه الأرواح الغربية :

The social Prison house in which our western souls are incarcerated

وكانت محاولة الهرب من هذا السجن هى نقطة البداية فى دراسته، فالدولة فى ذاتها ليست حقلا ذكيا للدراسة التاريخية إذ لن تستطيع أن تدرس تاريخ أيا من هذه الدول حتى توسع رؤيتنا لكى تتضمن الشبكة الكاملة لها والمترابطة ليس فقط بروابط سياسية وثيقة وإنما بالثقافة المشتركة وبتقاليد طويلة من الممارسات والمعانات المشتركة وهو ما يمثل مفهوم الحضارة.

وفقا لهذا المفهوم جاء تناول توينبى للتاريخ عالميًا وتضمنت حدود دراساته وبحوثه كل حضارات العالم التى اختفت وتلك التى ما زالت قائمة، ولكى نفهم القوى التاريخية التى سببت نمو وانهيار الحضارات كان من الضرورى مقارنة تاريخ مختلف الحضارات، ومثل هذه المقارنة سوف تسمح للمؤرخ أن يتبين مبادئ عامة وأنماط تشترك فيها كل الحضارات. والأهمية الحقيقية لهذا المنهج هى أنها ستحث المؤرخين على أن يفكروا بشكل نقدى حول موضوعات عريضة فى التاريخ وحول نماذج مشتركة فى الشئون البشرية كما سوف تجبر المؤرخ التحليلى

أن يعلو على مجال تخصصه المهنى وأن يعالج ويتعامل مع المعنى الأوسع للخبرة البشرية.

لذلك دعا توينبى المؤرخ واعتبر أن من واجبه البحث عن المعنى الأوسع للتاريخ، فالتاريخ يجب أن يكون أكثر من مجرد البحث عن الحقائق والمؤرخ يجب أن يكون أكثر من أثرى ويجمع المعلومات بشكل انسكلوبيدى وأن يكون أكثر من المتخصص الذى يجمع الشئون البشرية إلى أجزاء صغيرة متعددة.

ويلخص توينبى رؤيته للتاريخ بقوله إن "حساسيتى للبيئة التاريخية هى جزء من العيش فى البعد الزمنى : أنه شعور نحو أجدادنا وأحفادنا ، الشعور بأننا أوصياء على كل التاريخ البشرى وأن علينا أن نسلم ما سلم الينا وأن نتأكد أننا قد حافظنا عليه"

وفى تصنيف توينبى للحضارات وجد أنه على مدى الخمسة عشر قرنا من التاريخ المسجل ظهرت ستة وعشرين حضارة اندثر منها بالفعل ستة عشر وبين العشرة المتبقية تجمد ثلاثة هى : "Polymesians"، والإسكيمو والبدو وهى الآن أما تتعرض للفناء أو تمتصها الحضارة الغربية القائمة، أما بالنسبة للسبعة حضارات الأخرى : الغربية والجزء الرئيسى للمسيحية الأرثوذكسية فى الشرق الأدنى، وفرع المسيحية الأرثوكسية فى روسيا ، المجتمع الإسلامى ، المجتمع الهندى ، مجتمع الشرق الأقصى فى الصين، فرع مجمع الشرق الأقصى فى اليابان، فإن كلا منها تبدو فى مرحلة الاضمحلال مع إمكان استثناء الحضارة الغربية ، والحضارات عند توينبى هى الوحدات الحقيقية للتاريخ وليس الدول States والتى ينظر إليها بازدراء وكشئ محدود وضيق Paro chial كما أن التاريخ عنده ليس هو الأمم Nations التى كرهها توينبى لشعورها الزائد بالذات تحت رداء القومية Nationalism.

غير أن توينبى يحرص فى البداية على توضيح ما نعنيه بالحضارة Civilizalion فيقول إنه من الواضح أننا لابد نعنى شيئا ما، ذلك أنه حتى قبل أن نحاول تحديد ما نعنيه فإن هذا التصنيف للمجتمعات البشرية : الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية وحضارة الشرق الأقصى والحضارة الهندية وهكذا يؤكد أنها تعنى شئيا محددا. فهذه الأسماء تستدعى صورًا متميزة فى عقولنا فيما يتعلق

بالديانات والعمارة والرسم والسلوك والعادات، ومع هذا فإنه من الأفضل أن نقترب أكثر لما نعنيه بالحضارة التى شغلنا أنفسنا بها طويلاً. فيذهب توينبى إلى أنه يعنى بالحضارة أصغر وحدة من الدراسة التارخية التى يصل إليها المرء حين يحاول أن يفهم تاريخ بلده : الولايات المتحدة الأمريكية مثلا أو المملكة المتحدة. فإذا حاولت أن تفهم تاريخ الولايات المتحدة فى ذاتها فسيكون ذلك عملا لا يتسم بالذكاء ذلك أنك لن تستطيع أن تفهم مظاهر الحضارة الأمريكية مثل الجانب الذى تلعبه الحكومة الفدرالية فى الحياة الأمريكية والحكومة النيابية أو الديمقراطية أو التصنيع أو المسيحية ما لم تنظر فيما وراء الولايات المتحدة إلى أوربا الغربية وفيما وراء أصولها المحلية وفى قرون قبل أن يعبر كولومبس الأطلنطى. ولكن أن تجعل التاريخ الأمريكي ومؤسساته مفهوما وواضحا لأسباب عملية فأنت لست فى حاجة لأن تنظر فيما أبعد من الحضارة الغربية أو إلى اضمحلال وسقوط الحضارة الرومانية واليونانية. هذه الحدود الزمانية والمكانية هى التى تعطينا الوحدة المفهومة والواضحة للحياة الاجتماعية التى تكون الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى أو فرنسا أو هولندا والتى يمكن أن نطلق عليها المسيحية الغربية والحضارة الغربية والمجتمع الغربى أو العالم الغربى، وبصورة مشابهة إذا بدأت من اليونان أو صربيا أو روسيا وحاولت أن تفهم تاريخهم فسوف تصل إلى العالم المسيحى الأرثوذكس أو البيزنطى، وإذا ما بدأت من مراكش أو أفغانستان وحاولت فهم تاريخهم فسوف تصل إلى العالم الإسلامى، وبدءا من البنجال فسوف تجد العالم الهندى وبدءاً من الصين أو اليابان فسوف تجد عالم الشرق الأقصى.

ويركز توينبى على الفوارق بين الدولة والحضارة فيقول إنه بينما تفترض الدولة التى سيتصادف أن نعيش فيها ونكون مواطنين لها مطالب ملحة لا سبيل إلى تجاهلها بالنسبة لولائنا وإخلاصنا لها خاصة فى العصر الحديث فإن الحضارة التى ننتمى إليها إنما تعنى الكثير بالنسبة لنا ولحياتنا. وهذه الحضارة التى نحن أعضاء فيها "تتضمن فى معظم مراحل تاريخها - أن هذه الحضارة تضم أيضا مواطنين ودولا إلى جانب دولتنا. فهذه الحضارة أقدم من الدولة التى ننتمى إليها. إن الحضارة الغربية مثلا تبلغ من العمر ١٣٠٠ عاما بينما يبلغ عمر المملكة المتحدة التى تتكون من انجلترا واسكتلندا أقل من ٢٥٠ عاما، والولايات فيها ليست أكثر من ١٥٠ عامًا (وقت أن كان كتب توينبى ذلك عام ١٩٤٨)، فبينما تكون الدول

ذات أعمار قصيرة وموت مفاجيء فإن حضارة مثل الحضارة الغربية قد تبقى قرونا بعد أن تكون المملكة المتحدة والولايات المتحدة قد اختفت من الخريطة السياسية للعالم. وينتهى توينبى إلى أن هذا هو السبب الذى يجعله يطالبنا بأن ننظر إلى التاريخ فى ضوء الحضارات وليس فى ضوء دول وأن نفكر فى الدول كظاهرة سياسية زائلة وكجزء من حياة الحضارات التى تظهر الدول وتختفى فى أحضانها.

غير أن أهم ما يميز دراسة ونظرية توينبى عن الحضارات هو المراحل التى تمر بها وهو فى هذا يميز بين أربعة مراحل محددة تمر بها كل حضارة : النشؤ Rise النمو Growth الانهيار Breakdown والتفكك : Disintegration وعنده أن الدوافع لنشوء أى حضارة لا ينبع من أى صفة خاصة بالعنصر Race أو بيئة ملائمة وإنما من الاستجابة الخلاقة لتحدى ما. فمؤسسى الحضارات المصرية كانوا روادا أبطال حولوا الأرض والمستنقعات إلى أعمال الرى وحقول ومدن وفى بحثه عن تفسير مقبول للصعود ونمو واضمحلال الحضارة ركز توينبى لا على البيئة فى ذاتها وإنما على البطولة البشرية التى مكنت الإنسان من تحويل البيئة إلى منفعة ففى وادى النيل كان على الإنسان أن ينظف الأحواض ويجفف المستنقعات قبل أن يزرع وكان عليه أن يخضع وينظم اندفاع الطبيعة قبل أن يصنع الحضارة. وتمثل هذه الفكرة نقطة مركزية فى تحليل توينبى للحضارات، فعنده أن أعظم إنجازات الإنسان تنبع من الأعمال الخلاقة للروح الإنسانية، وعلى العكس فإن النقائص الروحية تتسبب فى النهاية فى اضمحلال الحضارة.

ويتصل تحليل توينبى للحضارات بشكل دقيق باعتقاده أن الإنسان قد حقق عملا يدلل على البراعة حين تغلب على التحديات المادية والبيئية وصنع الحضارة، غير أنه إذا كان لهذه الحضارة أن تستمر فقد كان عليها أن تنمو من تحدى إلى استجابة إلى تحدى جديد، كما كان لابد من المحافظة على الروح الخلاقة التى صنعت الحضارة إذا ما أرادت أن تواصل مسيرتها وتتفادى التوقف. فإذا ما عبر مجتمع ومر بعملية النمو فإنه سيتقدم نحو تقرير المصير Selfdetermination بمعنى تزويد نفسه بتحديات جديدة تثير سلسلة من ردود الفعل لاستجابات ناجحة وتحديات متجددة تمكنه من أن ينمو من قوة إلى قوة ويثبت هذا المجتمع بذلك إنه

يمتلك بتعبير برجسون الطاقة الحيوية ELan vital والقوة الروحية الداخلية التى تمكنه من أن يواجه تحديا بعد آخر ويقف وراء هذا الشخصيات الخلاقة وهم الرجال الذين نجحوا فى تقرير المصير من خلال السيطرة على النفس وهم الذين يحركون المجتمع إذا ما رانت عليه حالة من الركود. ويتفق توينبى مع برجسون الذى اعتبر "أنها قوة الدفع التى يمثلها العبقرى والتى تنقذ المجتمع من عدم الاستسلام للركود" وهؤلاء الرواد هم الذين يحركون الأغلبية الراكدة غير الخلاقة ويجبروها على أن تتبع قيادتهم ويبقون على الحضارة فى حالة من الصحة والحركة والديناميكية. ولذلك فحين تسقط هذه الشخصيات الخلاقة ينتهى التناسق الذى أظهره المجتمع خلال فترة نموه وتتحول الأقلية الخلاقة إلى قوة عاجزة لا تستطيع أن تتعامل بشكل ناجح مع التحديات الجديدة وبالنسبة لهؤلاء الذين لم تكن الحضارة بالنسبة لهم إلا قشرة رقيقة يعودون إلى بدائيتهم ويصبح المجتمع معرضا للانهيار. ويصر توينبى على أن المجتمعات ليس مقتضيا عليها بالموت ولا تخضع الحضارات لحكم قدرى أو لقوى خارج السيطرة البشرية وانهيارها ليس كذلك نتيجة لضربة مميتة توجهها جيوش غازية وإنما تنهار الحضارات لأسباب داخلية ومن جراح تلحقها بنفسها وكما عبر جورج ميرويت George Merdith ".. لقد تعرضنا للخيانة نتيجة لما هو زائف فى داخلنا، فالانتحار وليس القتل هو سبب موت الحضارات" التى تنهار حين يحدث تدهور داخل النظام الاجتماعى وافتقاد القدرة على الاستجابة للتحدى وبدلا من التعدد والتنوع يظهر التماثل المميت، وتغيب الروح المبدعة والمبتكرة كما تبدو مظاهر الانهيار فىالكف عن العمل والاستكانة للراحة وإذ تصبح الأقلية الخلاقة مفتونة بانجازاتها تبدأ فى النظر إلى الماضى وتصيبها الشيخوخة وتفتقد الحيوية والحماس وقوة الاندفاع التى كانت وراء تحريك عملية ومرحلة النمو ومكنتها يوما ما لأن تستجيب بشكل خلاق للتحديات ويأخذ الركون إلى الراحة صورة تألية مؤسسة تعدت جدواها كما كان الحال مع اليونانيين حين افتتنوا بمدنيتهم وهو ما أحبط فيهم روح الخلق ومنعهم من تحقيق الوحدة التى كان فى مقدورها فقط أن تنقذ الحضارة الهيلينية من الانهيار وانتشار الحروب الضروس فيما بينهم. وهكذا فإن الوعى المشترك الذى وحد صفوف المجتمع خلال فترة نمو الحضارة يتفتت، والأقلية الخلاقة تفقد قدرتها على الخلق وتصبح مجرد

أقلية مسيطرة والتــى "تحـاول أن تحتفـظ بـالقوة - ضـد كـل منطـق وحـق - وعلـى الامتياز الموروث التى لم تعد تستحقه، أما البروليتاريا (*) والتى تشعر أنـها لـم تعـد مرغوبة فإنها تكف عن أن تتبع الأقليــة المسيطرة التـى فقدت قدرتهـا علـى القيـادة وينعكس مثل هذا الانقسام فى الكيان السياسى لمجتمع متفكك على الانقسام والخـبرة الروحيـة فـى نفـوس أبنائـه. وفـى مثـل هـذا المجتمـع يصبــح السـلوك الاجتمــاعى والمشاعر فى حالة غليان وحيث يفقد جانبا من المجتمع تماسكهم السـابق ويتجهـون إلى تعويض ذلك إما بإطلاق العنان لشهواتهم، أو إلى النقيض حيث يصبحون زهادا متقشفين. وفـى كـل حالـة مـن هـذه الحـالات تحـل الأنانيـة الفرديـة محـل الإحسـاس بـالواجب نحـو المجتمـع كمـا يرتبـط بذلـك ظهـور شــعور بـائس بيـن أفـراد هـذه المجتمعات المتفككة بأنهم ينحرفـون إلـى عـالم لا يمكـن السيطرة عليـه إن لـم يكـن شريرا وأنهم يعيشون تحت رحمة رياح وتيارات عالم بلا هدف.

ويؤدى هذا الافتقاد لليقين الروحى بالكثيرين أن يتلمسوا الراحة بـالعودة إلـى الماضى وتمجيد فترة مبكرة من الزمـن، أو بـالحلم بمدينـة فاضلـة وكـلا الاتجـاهين علامات على الانهزامية ، ولذلك فهى استجابات غير خلاقـة للأزمـة الروحيـة. بـل إن الأقلية الخلاقة فى الحضارة المتفككة تتجه إلى تبنى النماذج الثقافيـة للبروليتاريـا وتسود السوقية الفن والأدب والأخلاق.

(*) لا يأخذ توينبى البروليتاريا بالمعنى الضيق الشائع الآن وإنما يفهمها علـى أنهـا الجماعـة التـى لم يعـد لهـا أى مشاركة حقيقية وفعالة فى حضارة مجتمعها.

رؤية توينبى الدينية

غير أنه من الصعب فهم نظرة توينبى العالمية، بل وفلسفته كلها، دون أن نتعرف على مصدرها الرئيسى وهو الدين ورؤية توينبى الدينية. وترتكز هذه النظرة على أنه مادام الله واحد وهو ماجاءت وبشرت به الديانات العليا وأنبياؤها، لذلك يجب أن تكون البشرية واحدة. كذلك صاغ توينبى تاريخه عن العالم بإحساس دينى بالرسالة ، فقد كان يأمل أن مثل هذا التاريخ سوف يساهم فى عقلية عالمية اعتبرها شرطا رئيسيا لحفاظ الإنسان على نفسه فالبشرية يجب أن تصبح عائلة واحدة أو سوف تدمر نفسها.

والواقع أن عقلية توينبى العالمية قد أثبتت إنسانية وتسامحا يشبه، وكما عبر هانزكون، إنسانية وتسامح تولوستوى، وشقيتنزر ولسنج. وشأنه شأن لسنج، رأى توينبى اليهودية والمسيحية والإسلام تنويعات على لحن واحد وأنها جميعا متساوية فى رسالتها الكبرى للبشرية ألا وهى رسالة الوحدة حول ما هو أعلى من الانقسامات العرقية.

وبالنسبة لتوينبى كان الدين يمثل نداء وجعله يشعر أن كل جهد بشرى خلاق هو فى النهاية جهد قاحل إن لم يدعم بتقدم الإنسان الروحى والاجتماعى. فقد رأينا هذا الإحساس بالرسالة كان فى جانب منه نتيجة لاعتقاده أن مصادفة مرضه قد أنقذته من الحرب العالمية الأولى الأمر الذى جعلته يشعر بحاجة عميقة لمساعدة زملائه من البشر وأن يعتقد أنه فى عالم يناضل من أجل البقاء، فإن عليه التزاما للمساهمة فى فهم طبيعة الأزمة التى حلت بالغرب، وبكل العالم، وأن يقدم لها العلاج.

بهذه النظرة الدينية اعتبر توينبى أنه فى دراستنا لتاريخ العالم ككل. فإنه يجب علينا أن نجعل للتاريخ السياسى والاقتصادى مكانة ثانوية وأن نعطى الأولوية للتاريخ الدينى، ذلك أن الدين – بعد كل شىء – هو العمل الجاد للجنس البشرى". وبالنسبة لتوينبى فإن رسالة المؤرخ هى نداء ذات طبيعة خاصة جدا "إنه نداء من الله للبحث عنه والعثور عليه.. فالتاريخ هو رؤيا لله وإن كانت رؤية جزئية

وضعيفة لله وهو يفصح عن نفسه فى أفعال إلى أرواح تنشده بإخلاص". واعتقد توينبى أن مهنته كمؤرخ" هى فى النهاية سعى لرؤية الله وهو يعمل فى التاريخ" كما اعتبر أن حقائق التاريخ " هى مفاتيح الطبيعة ومعنى الكون الغامض ومكاننا فيه، وأن الواقع الروحى خلف الظواهر هو الهدف النهائى لكل فضول".

وقد نبعت وجهة نظر توينبى حول التاريخ فى جزء منها من مفهوم الإنجيل فإنه من خلال التاريخ تصطدم إرادة الإنسان مع تعاليم الله. فالله يظهر للإنسان الطريق إلى الصواب ولكن الإنسان أيضا لديه الحرية على تحدى الله، وبينما كانت يد الله تعمل فى التاريخ فقد كان الإنسان هو الذى صنع بشكل أساسى تاريخه الخاص، وبذلك جلب الإنسان الثائر المتمرد على نفسه عقاب الله.

كذلك لم يكن مفهوم توينبى عن الطبيعة البشرية منفصلا عن نظرته الدينية فقد اعتبر أنه فى الطبيعة البشرية يكمن " عرق من الشر الشيطانى " والذى يكشف عن نفسه على المستوى الفردى فى تركيز الإنسان على ذاته وعلى المستوى الاجتماعى فى الحروب والخصومات والعداوات الطبقية التى أثبتت أنها مهلكة للحضارات، وقد أعتقد توينبى أن الاعتقاد الليبرالى فى الخير الجوهرى للإنسان هو ضرب من البداهة فمذابح القرن العشرين دليل كافٍ على قدرة الإنسان على الشر، غير أن توينبى قد اعتقد كذلك أن الطبيعة البشرية لديها طاقة كامنة على الخير، وأنه فى كل روح بشرية ثمة نضال يجرى بين هاتين القوتين الروحيتين المتعارضتين، ومثل هذا الانقسام الروحى يجعل من المجتمع البشرى ساحة للحرب المستمرة بين الخير والشر.

ويعتقد توينبى أن الطبيعة البشرية فقدت توازنها ، فقد أظهر الإنسان موهبة كبيرة فى السيطرة على الطبيعة أكبر من سيطرته على مشاعره الخاصة والحياة فى رفقة وزمالة مع زملائه من البشر. وحتى لا يستهلك الشر الإنسان، فإن عليه أن ينشد تأييد وعون الديانات العليا Higher Religions ويحددها باليهودية، المسيحية، الإسلام، البوذية والهندوسية ولأن كل إنسان لديه استعداد لأن يسلك ويتصرف وكأنه مركز الكون، وأن يستغل كل إنسان آخر فى العالم فقد حاولت الديانات مساعدته فى التغلب على أنانيته وذاتيته الموروثة، ومساعدة الجماعة على

التغلب على عقلية القبيلة المدمرة، وحين سيصبح أساس الخبرة والتجربة البشرية هو حب الكائن البشرى، فسوف يعامل الإنسان زميله الإنسان وإخواته البشر باحترام كبير.

غير أن ما جذب توينبى إلى الدين لم يكن نتيجة للالتزام بنظام لاهوتى معين وإنما الارتباط بالقيم النبوية Prohhetic Values واعتقاده أن الديانات تمكن الإنسان من أن يجد هدفاً فى الحياة ومن أن يتعامل مع الضغوط والقلق العاطفى كما أنها تنمى علاقات أفضل بين البشر وتساعد على الرفاهية الاجتماعية . إن الإيمان بالله عند توينبى يجعل من الفرد شخص أفضل ويبنى فيه الضمير الاجتماعى، والقيم الدينية هى فقط التى تستطيع أن تنقذ الإنسان من التكنولوجيا وتجريدها لإنسانيته، والقيم النبوية فقط هى التى تستطيع أن تحول بين البشرية وبين تدمير نفسها.

وفى يقين توينبى أن الإنسان قد أظهر دائما مشاعر دينية ذلك أنه من خلال الدين حاول أن يجيب على أسئلة جوهرية مثل الهدف من الوجود، ومعنى الموت. وقد صنف توينبى الديانات عبر التاريخ إلى ثلاث فئات: عبادة الطبيعة، عبادة الإنسان، وعبادة الواقع المطلق Absolute Reality وهو الله. فقد عبر الإنسان عن مشاعره الدينية بعبادة الطبيعة : الحيوانات ، المطر، والقمر والكواكب. وكانت آلهة الطبيعة بالنسبة للإنسان البدائى تجسيدا للوجود فيما وراء الطبيعة ولقوى يخضع لرحمتها. وقد تراجعت عبادة الطبيعة عندما بدأ الإنسان يمارس السيطرة عليها، فالإنسان لا يعبد الأشياء التى تعلم أن يتحكم فيها . وفى الوقت الذى استمرت فيه عبادة الطبيعة بعد نشوء الحضارة إلا أنها استبدلت بديانة أدنى وهى تقديس الإنسان أو الحاكم المتشبه بالله أو مؤسسة بشرية مثل الدولة المقدسة. ففى اليونان ألّه اليونانيون اثينا وبذلك أطلقوا الجانب المظلم من الطبيعة البشرية بارتكاب المذابح والاستعباد من أجل جماعتهم التى ألهّوها، وهذا التحويل للجماعة البشرية إلى ما يشبه الله أدى إلى الحرب التى حطمت فى النهاية الحضارة الهيلينية. أما الفترة من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادى فقد كانت بالنسبة لتوينبى هى عصر التنوير والتقدم الروحى وهى الفترة التى بدأت بالأنبياء اليهود وأنتهت بمحمد، ويدخل أيضا ضمن هذه الفترة آخرين من الأنبياء اليهود ديانات العالم العظماء مثل بوذا، Lao-tze، وكونفوشيوس، وزاراشوسنزا Zarathustra، وسقراط.

لذلك كان توينبى دائم الدعوى لأن يعود الإنسان إلى القيم التى بشر بها هؤلاء الأنبياء وهم أعظم الرجال الذين ألهمهم التاريخ، وأصر على أن الديانات العليا قدمت للإنسان العلاج من مرضه الروحى، وأوضحت له كيف يمكن أن يعلو على الجشع والعدوانية وتحسين نوعية علاقاته الاجتماعية كما نبه إلى أن الديانات العليا قد علمت البشرية أن الإنسان ليس إلها، وأن القوة البشرية محدودة، وأن الحب هو أعظم مظاهر الخير، وأن الإنسان لا يجب أن يؤلمه كائنا بشريا أو مؤسسة بشرية.

ويعتقد توينبى أن الروح البشرية سوف تقاوم كل جهود العقل بتصفية المشاعر الدينية فإذا لم توجه المشاعر نحو الديانات العليا فسوف تجد منافذ أخرى لذلك، إن الكائنات البشرية لا تستطيع أن تعيش بدون شكل من أشكال الدين. وإذا لم يُكبَح العقل ويهذب بواسطة الديانات العليا فسوف يحتضن الأساطير التى ستقدم مخرجا لأسوأ عناصر الطبيعة البشرية.

والواقع أن مفهوم توينبى للدين كان شخصيا أكثر منه طائفيا أو تعصبيا. فقد بدأ توينبى تربيته الدينية كشخص لا أدرى Agnostic ثم سرعان ما استخلص من دراسته فى أكسفورد أن "الدين فى ذاته هو وهم شخصى"، إلا أنه بعد ذلك وبالتأكيد تحت تأثير الحرب العظمى الأولى وظهور النظم الشمولية والحرب الثانية الوشيكة الوقوع أضفى قيمة لا تقدر على الديانات العليا واعتبر أنها مرجع الإنسان فى التغلب على أزماته الروحية والتأكيد له على أنه رغم إثمه فإنه يمكن تخليصه من هذا الإثم.

ورغم تقدير توينبى للديانات العليا ورسالتها التوحيدية إلا أنه رفض بعض نظرياتها التى تفتقر فى رأيه إلى المصداقية. فقد أعلن أنه مثلا لا يستطيع أن يتقبل بعض العقائد المسيحية مثل ميلاد العذراء أو البعث أو صعود المسيح للسماء ذلك أنها لا تتفق مع ما قاله لنا العلم عن إتساق الكون. كما أنه ينظر إلى المسيح لا على أنه سماوى ذو طبيعة أسمى من البشر وإنما كإنسان أُلهِمَ حب البشرية ولم يجاره فى ذلك كائن بشرى آخر. وبين كل أطفال الله كان المسيح أقربهم إلى تحقيق المثل العليا لبنوته لله. ولذلك اعتبر توينبى أن أكبر قيمة فى المسيحية هو مفهومها بأن "الحب الذى يضحى بالنفس هو أكثر الدوافع الروحية المعروفة لنا قوة".

ورغم أن المسيحية احتلت مكانا مركزيا فى فكر توينبى إلا أنه اعتقد أنــه لـم تكن وحيا فريدًا ونهائيا فكل الديانات العليا عنده هى مداخل متعاقبة لسر الوجـود، وأنها جميعا تنويعات لموضوع واحد، وهى جميعا بعض وجوه حقيقة الله كمـا أنهـا جميعـا تتوق إلـى أن تساعد الفرد لبلوغ الهدف الحقيقى للحياة ألا وهـو الصلـة الحميمة مع الله وتحرر الإنسان بتعليمه أن الله وحده وليـس الإنسـان أو مـا صنعـه هو القيمة العليا فى الكون وأنه الوحيد الجدير بالعبادة.. فضلا عن أنها جميعا تعين الإنسان على التعامل مع محن الحياة.

وقد رأى توينبى أن الديانات العليا بمخاطبتها البشرية كلها وليس جزء منهـا فقط إنما تمكن الإنسان من التغلب على الحواجز بين الأمم والحضـارات فقد كـانت منطلقات ثوريـة جديدة لأنهـا جميعـا أعلنت رسـالة العالميـة ووحدة البشـرية وهـو الشرط الذى أعتبره توينبى ضروريا لبقاء البشرية.

ولم يعتبر توينبى أنه ينتمـى بشكل تقليدى إلـى أى مـن الديانـات العليـا لأنـه لايستطيع أن يتقبل إجاباتها النهائية لسر الوجود، ولكنه يشارك هذه الديانات وقيمهـا الروحية وخاصة الحب والتعاطف وهو فى هذا يفضـل "أكبر قدر مـن الديـن علـى أكبر قدر من العقيدة الحازمة Dogma "ولذلك فهو يريد من كل الديانـات العليـا أن تفصل العناصر الجوهرية فيها وهى حب الله ومن ثـم حـب الإنسـان عـن تأكيداتهـا المذهبية Doctrinal والشعائرية.

وعلى الرغم من تأكيد توينبى على حدود العلم وقصـوره عـن تفسـير بعـض حقائق الكون وكذا الطبيعة البشرية إلا أنه انتقد الاتجاهات الدينية التى تقاوم الحقيقـة العلميـة وأدعــاء السـلطة "علــى مجــالات المعرفــة هــى مــن الاختصــاص المشروع للعقل".

والواقع أن ما يعطى وحده لفكر توينبى هو روحانيته وعالميتـه ورؤيتـه لأن يرى المجتمع الإنسانى موحدا بحب اللـه. وقـد لازم هـذا الفكـر اعتقـاده الثـابت بـأن التقاليد الغربية الليبرالية العقلانية لا تستطيع وحدهـا أن تجمـع بيـن النـاس معـا فـى سلام وزمالة ذلك أنها لا تستطيع أن تكبح بشكل دائم طبيعة الإنسـان الشـريرة التـى تعرب عن نفسها فى الحروب بين الشعوب والصراعات بين الطبقات، ولكى تكـون

فعالة فإن الليبرالية والعقلانية فى رأى توينبى يجب أن تستمد الإلهام من القيم الدينية وقد فهم توينبى على أنه يمثل أكبر مما تبشر به المؤسسات الدينية ورجال الدين كما فهم الحقيقة الإلهية على أنها قوة تاريخية تتداخل فى نسيج وجودنا.

غير أن توينبى لم يكن مؤمنا بسيط التفكير، فرغم عدم ارتياحه لعلمانية الغرب المعاصر إلا أنه لا يستطيع أن يخون أو يتجاهل ميراث الحرية الفكرية الذى خلفته الثورة العلمية وحركة التنوير ولكن ما حاول توينبى أن يفعله بإخلاص فهو أن يصيغ تآلفا بين العقل والدين يلائم متطلبات القرن العشرين.

توينبى ومأزق الحضارة الغربية

فى ضوء هذا التحليل للحضارات ومراحل نموها وتطورها كيف يتصور توينبى واقع ومصير الحضارة الغربية المعاصرة وكيف تبدو له خاصة فى ضوء الخبرات التى عايشها منذ تجربة الحرب الأولى مرورا بالحرب العالمية الثانية وما تخللها من نشوء نظم – وأيديولوجيات كالفاشية والنازية والشيوعية ثم التأثيرات العميقة والشاملة التى أحدثها تقدم العلم والتكنولوجيا؟

إن عناصر الصورة التى تخللت الأجزاء الأولى من "دراسة التاريخ" ما زالت كما هى إلا أنها قد إزدادت حدة واحتوت على تحليل أكثر تفصيلا للمشكلة الغربية فى الأجزاء الأخيرة وخاصة فى ضوء رؤيته لتطور التكنولوجيا واعتبارها أكثر الملامح أهمية للحضارة الحديثة وأصل مشكلتها المحدده.

ويفصل توينبى رؤيته لأزمة الحضارة الغربية وكيف تطورت بالقول بأنه مع بداية القرن العشرين كان الغربيون متأكدين أنهم قد صنعوا طريقا عقليا ومنظما ومشبعا للحياة وأنه سوف يستمر على هذه الحال، وآمنوا بوجهة نظر جيبون بأن ما وقع لروما لا يمكن أن يحدث لأوربا لأن الغرب قد حقق تقدما كبيرا فى المعرفة والصناعة، وقد جعلتهم هذه الثقة الزائدة فى اختلافهم عن الآخرين يتأكدون أن الأمراض التى حطمت الحضارات الأولى لن تصيبهم وأنهم سوف يواصلون التقدم بشكل مستمر، ويتذكر توينبى أنه قبل الحرب العالمية الأولى كان هو ووالديه:

"يتوقعون أن الحياة فى العالم كله ستكون رشيدة وأكثر إنسانية وديمقراطية وإنه ببطء ولكن بثبات سوف تحقق الديمقراطية السياسية عدالة اجتماعية أعظم. كذلك كان توقعنا أن تقدم العلم والتكنولوجيا سوف يجعل البشرية أغنى وأن هذه الثروة المتزايدة سوف تنتشر من الأقلية الى الأغلبية وتوقعنا أن كل هذا سوف يحدث بشكل سلمى وفى الواقع تصورنا أن البشرية تتجه نحو جنة أرضية وأن توجهنا نحو هذا الهدف تفرضه علينا ضرورة تاريخية".

غير أن الحرب الأولى جاءت لكى تصدم الغربيين وإحساسهم بالراحة والاطمئنان وكشفت جرائم النازية فى الحرب الثانية عن "إجرام يتقيح تحت سطح

الحياة فى العالم الغربى"، وأن الألمان لم يكونوا ليرتكبوا جرائمهم بدون هذه الحقيقة. وبغياب الإيمان بالتقدم المنتظم " تيقظنا على حقيقة أن الإنسان الغربى وأعماله لم يعد محصنا ضد الخطر أكثر من إنسان الحضارات التى فنت".

وبشكل متماسك مع فلسفته فى التاريخ رأى توينبى مشكلات الغرب المعاصر فى ضوء دينى فالغرب المعاصر قد أصبح حضارة ما بعد المسيحية والتى تحول فيها الولاء الذى كان للمسيحية إلى الأيديولوجيات الثلاث الليبرالية والقومية والشيوعية وهى جميعها ديانات بديلة ومتنافسة مع القيم المسيحية، فقد أستوعبت الليبرالية المفهوم المسيحى عن احترام الفرد وتبنت الشيوعية المثل المسيحية عن العدالة الاجتماعية، ولكن كلا منهما انفصلت عن الجذور المسيحية لهذه المثل. فالصورة العلمانية للعدالة الاجتماعية ليست كافية فى جوهرها ، أما ماهو أكثر ضررا بين الايديلوجيات عند توينبى فهو القومية والتى يعتبرها عودة إلى تمجيد المجتمع المحلى Local Community كما كانت تمارس فى المدن اليونانية والرومانية. ورغم أن توينبى كان يقدر التقاليد الليبرالية وكان يفضل حماية حقوق الفرد، وحكم القانون، والحكومة الدستورية والتسامح والعدالة الاجتماعية واحترام تقاليد العقل إلا أنه كان مقتنعا بأن التقاليد الليبرالية لا تستطيع أن تكون بديلة عن الدين ولا تستطيع أن تعيش دون أن تستعيد روابطها بروحه ذلك أنه حين انفصلت عن المسيحية، انحطت الليبرالية إلى نوع من المنافسة الأنانية، لذلك لا تستطيع الليبرالية المكتفية بذاتها أن تحافظ على الحرية الفردية وتتنافس بنجاح مع الأيديلوجيات الديكتاتورية إلا بعد أن تتشرب بالقيم الروحية.

وشأن محافظى القرن ١٩ اعتقد توينبى أن تركيز الليبرالية على المصلحة الذاتية يهبط بالمجتمع إلى مجموعة من الباحثين عن المصلحة الذاتية، ويفرق بين الأفراد الذين سيصبح مثلهم الأعلى هو الربح، كذلك شأن محافظى القرن ١٩ رفض توينبى وجهة النظر اللاتينية أن الشر هو نتاج بيئة خاطئة وأعاد تأكيد وجهة النظر المسيحية عن الرذيلة الموروثة فى الإنسان، وقد اعتبر توينبى فى نقده لليبرالية أن العقل، وهو المكون الحاسم فيها، يعطى للإنسان السيادة على الطبيعة، ولكن هذا أقل أهمية بكثير من علاقة الإنسان بنفسه وزملائه من البشر وبالله.

أما الشيوعية فقد اعتبرها توينبى، أكثر من الليبرالية، اشتقاقا أيديلوجيا مرعبا من المسيحية فى الوقت الذى نبذ فيه الماركسيون الدين بوجه عام والمسيحية بوجه خاص فإن عقيدتهم لم تكن تظهر إلا فى وسط مسيحى، وقد ظهرت الماركسية كهرطقة مسيحية هاجمت المجتمع المسيحى لعدم إخلاصه لمثل العدالة الاجتماعية التى أعلنتها المسيحية الأولى. ويشير توينبى إلى عنصر مسيحى آخر فى الماركسية وهو العالمية والعدالة الاجتماعية فهو يعتقد أن الماركسية قد استوعبت عنصرا سلبيا من التقاليد اليهودية والمسيحية وهو التعصب" ففى إيمانهم بصحة قضيتهم رفعوا راية الحرارة العاطفية للإيديولوجية السياسية إلى مستوى الحرارة والعاطفة الدينية، وبعد أن أصبحوا متعصبين مثل المتحمسين فى الحروب الدينية أظهر البلاشفة بعض أسوأ خصائص الطبيعة البشرية وشوهوا ما كان نضالا مشروعا من أجل العدالة الاجتماعية "غير أنه فى الوقت الذى وجدت فيه الملامح الإصلاحية والعالمية جذورها فى المسيحية، تخلت الماركسية عن عنصر مسيحى حاسم، فقد أوصت المسيحية الأولى باهتمام الإنسان برفاهية الآخر ومشاركته له فى خيراته الأرضية "ليس كمجرد حب الإنسان، ولكن كعلاقة روحية يقف فيها الله كطرف وكذلك مخلوق بشرى، أما ماركس فقد تبنى مبدأ مسيحيا وطبقه فقط على المستوى المادى للحياة فى الوقت الذى أنكر فيه وتجاهل رسالة المسيحية الروحية" ولذلك كانت الشيوعية مناقضة للمسيحية لا تبدى أى اهتمام بالفرد البشرى بكرامته وبحاجته للغذاء الروحى والنهوض الروحى والثقافى، وانتهى توينبى إلى أنه بسبب تخليها عن القيم الروحية، فلن تستطيع الشيوعية أن تتغلب على الخلافات بين الطبقات والأمم والأجناس وتوحد البشرية.

أما القومية فقد كانت بالنسبة لتوينبى أكثر أيديلوجيات القرن العشرين سوءا، فإذا كانت الليبرالية والاشتراكية يمكن إدخالها وتكاملها مع التقاليد المسيحية فإن ذلك غير ممكن مع القومية. فلأن القومية تدفع الإنسان لأن يمجد جماعته لذلك فهى صورة بدائية من الشيوعية، فالقومية تعيق وتحد من رؤية وحدة البشرية التى آمن بها كل الأنبياء، وفى الوقت الذى يحرر فيه الدين الإنسان من أنانيته الفطرية المتأصلة فيه، فإن القومية تكثف الجانب الأنانى والمتوحش للطبيعة البشرية وبإثارتها للحروب بين الشعوب التى تنتمى إلى حضارة مشتركة، فإن القومية تعيق

كذلك التقدم الاجتماعى. وبعد دراسته لجميع الحضارات استخلص توينبى أن القومية مسئولة بالتأكيد عن فناء مالا يقل عن ١٤ حضارة وربما مالا يقل عن ١٦ حضارة من مجموع الواحد وعشرين حضارة التى ظهرت إلى الوجود. ورغم أن رسالة الديانات هى أسمى بكثير من الرؤية القومية إلا أن الديانات لن تستطيع أن تكسر قوة القومية أو جاذبيتها وإغرائها.

وفى تقدير توينبى أن القومية الحديثة قد بذرت فى تربة مخصبة بحطام المسيحية اللاتينية خلال عصر النهضة والإصلاح. وقد أدى إحياء عصر النهضة للثقافة الكلاسيكية بما فيها الإخلاص القوى للدولة ، إلى رفع القومية إلى الذروة كما أن الغرب المعاصر لم يعجب فقط بغنى وأدب اليونان والرومان ولكن أيضا بإنجازاتهم السياسية والعسكرية، وقد أبدى اليونان والرومان ولاءً حادًا لمجتمعاتهم ونظموا جيوشا قوية وخاضوا حروبا للغزو، وهو ما قلدهم فيه الغرب الحديث.

من ناحية أخرى فإذا كان التشيع للقومية قد نبذ الاهتمام المسيحى بالبشرية ومثلها الأعلى فى الحب، فقد اندفعت بتعصب إلى أسوأ مما ذهب وأظهره المسيحيون خلال الحروب الدينية التى حاولت أن تفرض الوحدة الروحية بالقوة، واعتبرت أن الأمة هى الخير الأسمى، وحاول المتعصبون القوميون فرض الوحدة القومية واضطهاد قوميات أخرى وإخضاع السكان لنظام ونسق موحد، وفى سعيها هذا حولت القومية المجتمع البشرى إلى أمة، والحرب إلى حملة مقدسة والمعارضين إلى مرتدين والمواطنين إلى مؤمنين مخلصين. وحيث إن الإنسان قد أصبح مستعدا لأن يضحى بنفسه من أجل هذه الديانة الجديدة إنما هو دليل على أن القومية "هى فى حقيقتها إحياء دين نشأ فى الفراغ الروحى الذى نشأ فى قلوب البشر نتيجة لتلاشى الدين"

ويتصور توينبى أن القوة الأخرى التى ساهمت فى الديناميكية الشيطانية للقومية هى الصناعة. فشأن الديمقراطية، فإن الصناعة عالمية فى روحها فهى التى تعمل بحرية وبشكل مفيد إلا إذا كان العالم منتظما فى حقل واحد من النشاط الاقتصادى، ولكن حين ظهرت الصناعة كان العالم الغربى قد تفكك إلى عدد من الوحدات السياسية والاقتصادية الصغيرة التى أقامت الحواجز أمام التكافل الاقتصادى ونتيجة لهذا النسيج المحدود لم تستطع الصناعة - مثل الديمقراطية أن

تحقق طبيعتها الأساسية وبدلا من أن تبنى نظاما عالميا فإن الصناعة مثل الديمقراطية، قد دعمت الدولة المحدودة التى تنشد تنمية مصالحها الاقتصادية الخاصة على حساب البشرية.

وقد وجد توينبى فى النازية تجسيدًا لشرور القومية، ولم تكن النازية عنده مجرد استجابة ألمانية لهزيمة الحرب الأولى وإنما "سجلت اكتمال حركة سياسية وتمجيدا وثنيا وعبادة لجماعات بشرية محدودة كانت تكتسب تدريجيا ولأكثر من أربع قرون أرضية فى العالم الغربى على امتداده". وأن يسقط شعبا غربيا إلى هذا الحد إنما يدل على أن الغرب لم يرتفع عالميا وأنه مهدد باستمرار ببربرية ضالة يأويها فى صدره. كما كانت النازية بالنسبة لتوينبى تمثل مرحلة من النضال بين روح المسيحية الغربية وروح البربرية الأوربية التى صنعت المسيحية من قوتها فى بعض الأحيان ولكنها لم تظهرها كلية". ولذلك أصر توينبى على أن كارثة النازية تبرهن على عدم كفاية الليبرالية وأن القيم العلمانية لعصر التنوير بدون دعم من القيم الروحية المسيحية ليست كافية لكبح جماح أحط دوافع الإنسان وأنه بعد خبرة النازية أصبح من غير الممكن الاستمرار فى التقدم الحتمى للحضارة الغربية العلمانية وبالكمال الذاتى للطبيعة البشرية الفاسدة، ورغم أن النازية قد ظهرت فى أوربا وبين شعب كان مسيحيا لأكثر من ألف عام فقد رآها توينبى كذلك مشكلة بشرية كما كانت ألمانية أو غربية ذلك أنه داخل الطبيعة البشرية يكمن عرق من الشر قدمت له النازية إغراء قويا، الأمر الذى دعم اعتقاد توينبى أن الحضارات مازالت تجارب أراد بها الإنسان أن يرتفع فوق المستوى البدائى وأن هذه التجارب غالبا ما تنتهى بالفشل ويصبح المغزى :

"إن الحضارة لم تكن أبدا ولا فى أى مكان آمنة، إنها طبقة رقيقة من العادة تعلو كتلة متوهجة من الشر هى دائما فى حالة غليان تنتظر فرصة الانفجار والظهور. إن الحضارة لا يمكن أن تؤخذ أبدا كشىء مضمون وثمنها هو اليقظة الدائمة والجهود الروحية التى لا تتوقف".

وهكذا رأى توينبى القومية مثل الروح الطائفية إذا ما بلغت حد التطرف إنما تدمر الوعى الأخلاقى والمنطقى، ومعها ، يفقد العدل والظلم والطيب والسيئ والعنف والمسالمة معانيها وتصبح كشىء ما تدينه جماعة ما كشيئ مشين وغير

إنسـانى حيـن يفعلـه الآخـرون هـو نفـس مـا تحـض عليـه شـعبها أن يفعلـه لشعب آخر.

وإذا كان توينبى قد رأى أن الفراغ الروحى الذى نشأ عن تحول الغرب عن الدين قد ملأته الأيديلوجيات وأن أكثرها خطورة كـانت القوميـة، فإنـه قد رأى ثمـة معبودا آخر جذب الروح الغربية وهو التكنولوجيا.

فقد اعتـبر توينبـى أن سيطرة الإنسان الغربـى علـى الطبيعـة الماديـة جعلـه يتصرف مرة أخرى وكأنه أعلى وجود روحـى فـى الكـون، ولأن الطبيعـة البشـرية ظلت آثمة كما كانت دائمـا، فقد أسـاء الإنسـان استخدام قوتـه التكنولوجيـة وخـلال القرون الثلاث الماضية خلقت التكنولوجيا بيئة مصطنعة محملة بالخطر على الروح البشرية "أن الإنسان قد تغلب الآن بشكل حاسم علـى الطبيعـة بالتكنولوجيـا، ولكـن كان المنتصر هو التكنولوجيا وليس الإنسان نفسه، وقـد استبدل الإنسـان فقـط سـيدا بآخر، وإن كان سيده الجديد أكثر غطرسة واسـتبدادا مـن الآخـر، ومـازال الإنسـان عبدا لبيئتـه ولكنهـا الآن البيئـة التـى صنعهـا بنفسـه وليسـت البيئـة التـى منحتهـا لـه الطبيعـة. إن الفجـوة المـتزايدة بيـن مـا يتصـوره ذكاؤنـا وبيـن مـا نقـدر فعليـا علـى استيعابه إنما تتسبب فى كارثة تعيسة، ذلك أننا نجد من الصعوبـة البالغـة أن نكيـف أنفسنا مع التغير والغليان الثورى السريع الناجم عن تفجـر العلـم والتكنولوجيـا . إن التغيـير الحضـارى الـذى تتطلبـه هـذه المسـيرة القويـة للتكنولوجيـا إنمـا يصيـب البشرية بالدوار.

ويطبق توينبى هذا على الطبقات المتوسطة التى هجرت فى القـرن العشـرين العمل فى المشروع الفردى والـذى كـان مجـال عملهـا التقليـدى إلـى العمـل لصـالح المؤسسات الكبيرة، كما شعرت أيضا بالآثار الضارة للنظـام الصنـاعى. كذلـك كـان الحال مع عمال المدن وموظفى المكاتب وعلى عكس الفنييـن المـاهرين لعصـر مـا قبل الصناعة لم يعودوا يشعرون بالفخر فى عملهم ، وبفقدانهم الحمـاس لعملهـم فقـد أصبحـوا يعيشـون فقـط مـن أجـل أجورهـم، كذلـك أدى الضغـط النفسـى النـاتج عـن الرتابة اليومية للمصنـع والمكتـب إلـى التحـول إلـى العنـف لتخفيـف هـذا الإحسـاس وهكذا كان العنف الذى يسود المدن أحـد النتـائج للعمـل الـذى لا يشـبع نفسـيا، وفـى الانخراط فى أعمال مدمرة اجتماعيا. فالعامل الـذى يشـعر بـالملل إنمـا ينتقـم بـدون

وعى من المجتمع، وليست رتابة العمل إلا جانب واحد فقط من القلق النفسى الذى تتسم به الحياة فى المدن التى تعمل وتعيش بالآلة الميكانيكية، فالتلوث والضوضاء وتكدس المرور والقذارة والقبح الانفصالى عن الطبيعة تساهم أيضا فى تسميم الحياة الاجتماعية فى الوقت الذى يكثف فيه سكان المدن معيشتهم فيها إلا أنهم يتطلعون إلى الهرب منها والعيش فى الضواحى وفيما تبقى من الريف ويمضون مرحلة اعتزالهم العمل فى مناطق بعيدة. وهكذا أصبح الناس ليسوا فقط غرباء فى العمل الذى يؤدونه ولكن أيضا فى المدن التى يعملون فيها وقد دفع هذا الواقع توينبى إلى الاعتقاد، وفيما عبر عنه عام ١٩٦٩، بأننا ربما صنعنا نوعا آخر من الحرب والتى قد تكون فى الواقع حربا عالمية ثالثة وهى حرب "ليست فقط بين الدول والشعوب ولكن بين الشخصية والتكنولوجيا".

وفى تفسيره للاضطرابات الطلابية والحركات الانفصالية والعنف بين السود والطبقات الفقيرة اعتبر أن ذلك كله هو تعبير عن ما فعله تقدم العلم والتكنولوجيا أو ما سمى "بالعالم الجديد الشجاع"، من طمس للشخصية الإنسانية وأن هذه الحرب العالمية الثالثة التى تحدث عنها وهى فى الواقع ثورة ضد تجريد الإنسان من شخصيته وتعبير عن الغضب ضد تكنولوجيا مستبدة تحول الإنسان إلى مجرد شيء

وقد لاحظ توينبى أن الإنسان تاريخيا قد شعر بارتباط وثيق بمدينته ونظر إليها بحب وكبرياء وقد عبر مفكرون عظام من أمثال تشيديدس والقديس بول وسيسيرو وماكيافيللى وجوته عن مشاعر دافئة نحو مدنهم، أما الإنسان المعاصر من ساكنى المدن الميكانيكية الحديثة فهو لا يملك مشاعر الحب والتعلق هذه تجاه مدنه الميكانيكية نتيجة لحالة الإعياء العام التى يسودها.

وهكذا أثارت السيرة المنتصرة للعلوم والتكنولوجيا انزعاج وقلق توينبى أكثر مما أثارت إعجابه، ذلك لأن النمو الأخلاقى والروحى هو ما كان يعتبره أكثر أهمية وأصبح ما يحتاجه الإنسان الغربى الذى يفاخر بتكنولوجيته هو إلى من يذكره بأنها "ليست جوهر الإنسانية، بل إنها ليست ملمح الطبيعة البشرية الأكثر حسمًا وأهمية للبشرية ولبقائها ورفاهيتها". ويلاحظ توينبى استطرادا من ذلك أنه منذ عصور ما قبل التاريخ كان هناك فجوة أخلاقية، ولكن هذه الفجوة تنمو بشكل أكثر أتساعا بالتقدم التراكمى الذى تحققه التكنولوجيا فى الوقت الذى يركد فيه الجانب

الأخلاقى. فالإنسان لم يسلح نفسه روحيا كى يتعامل ويعالج هذه القوة المادية الضخمة الأمر الذى تسبب فى اتساع الفجوة على مدى الثلثمائة عاما الأخيرة، وبسبب التخلف الروحى تحول التقدم التكنولوجى إلى مصائب اجتماعية واستخدمت أكثر الأساليب العلمية لارتكاب أسوأ المذابح التى عرفها التاريخ.

لذلك كان توينبى يدعو الغرب دائما إلى أن يتذكر حدود العلم والتكنولوجيا أكثر من أن يبالغ فى تقدير إنجازاتها، وإلى أن يدرك أن العلم لم يقدم إجابات على مشكلات الإنسان التى تجلب له القلق والخوف، كما أنه لم يحرر الإنسان من أنانيته أو قلل من شعوره بعدم الأمان. وعلى هذا فإن حل المشكلات التى تطرحها التكنولوجيا ليس فى المزيد من التكنولوجيا بينما اعتقد توينبى أن الإعلاء من شأن الجانب الروحى والأخلاقى هو الذى يحولنا بعيدا عن تمجيد الثروة والقوة التى يبحث عنها الإنسان على حساب السعادة البشرية والوفاق الاجتماعى كما سوف يؤدى إلى إعادة الإنسانية إلى التعليم، والتأكيد على دراسة الإنسان كهدف لتحسين أنفسنا وعلاقاتنا بالآخرين.

غير أن تحفظات توينبى على العلم والتكنولوجيا وآثارهما على الإنسان المعاصر فى الغرب لم يكن يعنى أنه يدعو إلى العودة إلى نوع وأسلوب الحياة قبل الصناعى. وكان يدرك أنه بدون التكنولوجيا الحديثة سيكون مستحيلا إطعام سكان العالم المتفجر، ولكن ما كان يريده هو ابطاء التكنولوجيا وإعادة توجيه الغرب لاهتماماته ومواهبه نحو الحاجات البشرية، واعتقد أنه إذا ما وجه الإنسان وعى روحى وبصائر جديدة فى الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى ينبثق هذا الوعى من تحويل الطاقة العقلية بعيدا عن التكنولوجيا ونحو الفنون الحرة، فإن الإنسان قد ينجح فى إضفاء الإنسانية على نفسه وبيئته.

وفى تحليله للعلاقة بين التكنولوجيا والحضارة يتوصل توينبى إلى نتائج تتماسك مع فلسفته فى التاريخ، فالتقدم والتكنولوجيا ليس مؤشرا على التقدم فى الحضارة فقد تكون الحضارة فى حالة اضمحلال على الرغم من إنجازاتها التكنولوجية وقد أصبحت التكنولوجيا بالنسبة للإنسان المعاصر موضوع عبادة وبدون إرشاد القيم الروحية لا يستطيع الإنسان أن يتعلم كيف ينظم ويستخدم التكنولوجيا من أجل غايات إنسانية. ويستشهد توينبى بأن الغرب الآن يدفع ثمن هذا

التأليه للتكنولوجية كما خلق وحشا يستطيع أن يميت القلوب ويدمر الأجساد ويحطم الكوكب الذى نعيش عليه، فالأسلحة النووية والتلوث وزيادة السكان وهى جميعا من إنتاج التكنولوجيا تهدد البشرية بالفناء. لذلك اعتقد توينبى أنه بإعادة القيم النبوية" Prophetic values نستطيع أن نحصل على التعاطف المطلوب للتعامل مع العصر الحضارى فى إعادة توجيه طاقاتنا الفكرية من الآلات إلى الاحتياجات البشرية الحقيقية والحصول على المعرفة والحكمة للتعامل بشكل فعال مع هذه المشكلات بإبطاء الاندفاع نحو التكنولوجيا والإجهاد واشتغال أفضل أذكياؤنا بالفنون الحرة والعلوم الإنسانية التى تقدم للإنسانية الأمل فى البقاء.

وفى ضوء هذا التحليل الذى يتبعه توينبى لمأزق الحضارة الغربية وعناصر الضعف فيها فهل يعنى هذا أن الغرب قد دخل مرحلة الاضمحلال Declime؟ وهل بدأ يدخل فى الدورة التى ألمت بحضارة سابقة ومنها الحضارة الهيلينية – مصدر الحضارة الغربية – وانتهت بها إلى الانهيار والتفكك؟ وهل ثمة أمل فى أن تهرب الحضارة الغربية المعاصرة من هذا المصير. فإذا كان كذلك فما الذى يجب أن يفعله أبناءها لتفادى هذا المصير؟

على الرغم من أن توينبى لم يشك فى أن زمن المتاعب قد حل على الغرب وأنه ربما تعدى مرحلة الذروة وأن فى الغرب من المظاهر والأعراض التى مرت بحضارات سابقة منهارة، على الرغم من هذا، إلا أن توينبى لم يرى هذه الأعراض على أنها لابد أن يستتبعها انهيار الغرب وتفككه.

ونبع هذا من أعتقاد توينبى أن الإنسان ليس تحت رحمة وقوة وقدر لا يرحم، وأن لديه القدرة على اختيارات ذكية وعلى استئصال مثل هذه الأورام الخبيثة التى حطمت حضارات سابقة. ورغم أن ستة عشر حضارة قد فنيت، وتسعة أخرى تبدو على أعتاب الموت فإن توينبى لم يعتقد أن الحضارة مقضى عليها بصورة لا ترحم، فهى عنده ليست أعضاء حية محكوم عليها مسبقا بالموت ومن ثم ظن توينبى أن الغربيين مازال فى استطاعتهم أن يعالجوا الأمراض التى حلت بهم وبمجتمعهم وأن يبعثوا حياة جديدة فى حضاراتهم وقال :

"ليس هناك ما يمنع الحضارة الغربية من أن تتبع السوابق التاريخية إذا ما اختارت ذلك بارتكاب الانتحار الاجتماعى، إلا أنها ليس محكوما عليها أن تجعل

التاريخ يكرر نفسه، ذلك متروك لها إذ تستطيع أن تعطى التاريخ تحولا غير مسبوق، وكبشر فقد منحنا حرية الاختيار ولا نستطيع أن نلقى مسئوليتنا على أكتاف الله أو الطبيعة، فيجب أن نتحملها بأنفسنا، وهو ما يتوقف علينا.

وبرفضه للحتمية ، أصر توينبى على أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به على أساس من أنماط أو نماذج تاريخية Historical Patterns ، ورغم اقتناعه بأن نمط الانهيار والتفكك يمكن تمييزه فى تواريخ الحضارات التى ماتت إلا أنه وعلى عكس سبنجلر كما رأينا – لم يفترض "نمطا محددا لابد أن يتطابق معه تاريخ كل حضارة" ذلك لأن "المجرى الذى تسلكه الشئون البشرية ليس مقررا سلفا"، ومن ثم فقد اعتبر أن تاريخ الحضارة الغربية هو اليوم مازال قصة لم تنته .

ومما يشجع توينبى على الاعتقاد بأن ما يتبدى من أعراض الاضمحلال فى الغرب ليست مميتة هو وجود علامات صحة يمكنها أن تقاوم هذا المرض وأن قوى التصالح والنقاهة مازالت قائمة ضد قوى الاختلاف والتفكك، فى هذا رأى حركة التكامل الأوربى من العلامات المشجعة، كذلك كان تصفية وإلغاء العبودية التى كانت مسئولة عن هزيمة حضارات فى الماضى، كما استبشر توينبى مما كانت مجتمعات أوربية قد بدأته من محاولة التوصل إلى صيغة وسط بين المشروع الحر وبين الاشتراكية إذ رأى أن الفردية غير المقيدة إنما تؤدى فقط إلى أقلية مستبدة وماهرة تسيطر على الجماهير العريضة بينما يمكن "لجرعة معتدلة من الاشتراكية أن تقى ضد خطر خضوع المجتمع إلى الشمولية المطلقة التى تفرض على البشر عدالة اجتماعية مثل تلك التى تسود خلية النحل على حساب تجريدهم الغاشم من حق الإنسان المتميز فى الحرية الذى ولد بها".

وعلى مستويين يرى توينبى الحضارة الغربية كحضارة فريدة، فأولا وبين الحضارات السبع الباقية فإن الغرب فقط الذى لم يظهر علامات لا نزاع حولها على أنه يتفكك بالفعل، وثانيا فقد انتشرت الحضارة الغربية فى العالم كله وبشكل أصبح مصير الغرب مربوطا ببزوغ حضارة عالمية. فنتيجة تدفق الأفكار الأوربية ومؤسساتها وتكنولوجيا الغرب وتبنى الأساليب الغربية والنظام الدولى الغربى دخل العالم غير الغربى فى الأزمة الروحية للحضارة الغربية.

هذا الأمل الذى يفتحه توينبى أمام الحضارة الغربية الراهنة ، هو الذى يجعله يتساءل عما إذا كان التاريخ يكرر نفسه ويتساءل بشكل أكثر تحديدا عما هى دروس التاريخ بالنسبة للحضارة الغربية المعاصرة. يرد توينبى على هذا التساؤل بالقول إنه فى هذا الجيل أكتسب السؤال القديم، فجأة، أهمية جديدة وهامة جدا حيث استيقظ الإنسان الغربى على حقيقة – الأمر الذى للدهشة لم يكن على وعى بها – أن إنجازاته معرضة للخطر بنفس ما حدث لحضارات سابقة وإنجازاتها قبل أن تنطفىء شعلة هذه الحضارات وتخمد . وهذه الحقيقة التى تكشفت للإنسان الغربى هى التى جعلته يبحث فى كتب الماضى لعله يجد دروسا يستفيد بها، ولكى يرى ما إذا كان التاريخ يقدم له معلومات حول ما يجب عمله فى المستقبل؟ وإذا كان كذلك إنما هو عبء هذا العمل وهل يوضح لنا أننا مقضى علينا بشكل لا رحمة فيه، الأمر الذى لا نستطيع تفاديه أو حتى تعديله بجهودنا؟ أو أنه ينبئنا لا عن أشياء مؤكدة وإنما عن أمور محتملة أو شبه محتملة فى مستقبلنا ؟ ويوضح توينبى أن الفارق العملى بين البديلين واسع ذلك أنه بالنسبة للبديل الثانى فإن دروس التاريخ لن تكون مثل رسوم السماء التى يستعملها المنجمون وإنما مثل خريطة الملاح التى ستمكن المسافر الذكى لاستخدامها على الأقل فى تفادى تحطم سفينته، وبخلاف ما إذا كان يبحر بدونها، ذلك أنها ستقدم له الوسائل إذا ما كان يمتلك المهارة والشجاعة لاستخدامها – فى شق طريقه بين الصخور والشعاب.

ويعود توينبى إلى مناقشة التساؤل عما إذا كان التاريخ يعيد نفسه بشكل أكثر تحديدا وذلك قبل الانغماس فى الإجابة عليه، فهل يعنى هذا التساؤل شيئا أكثر من مجرد السؤال عما إذا كان التاريخ قد تحول لكى يعيد نفسه كما بدأ فى مناسبات فى الماضى؟ أو أننا نذهب أبعد من هذا لكى نسأل عما إذا كان التاريخ قد تحول لكى يعيد نفسه كما بدأ فى مناسبات فى الماضى؟ أو أننا نذهب أبعد من هذا لكى نسأل عما إذا كان التاريخ محكوما بقوانين لا يمكن خرقها والتى لم تؤثر فحسب فى كل حالة ماضية انطبقت عليها وإنما ستكون لها بالتأكيد أثرا فى كل موقف مشابه يمكن أن ينشأ فى المستقبل؟ وهنا يتوقف توينبى لكى يوضح أنه بالنسبة له فهو ليس حتميا Determinist فى قراءته للغز الحياة البشرية، فهو يؤمن بأنه حيثما تكون حياة فثمة

أمل، وأنه بمساعدة من الله فإن الإنسان هو سيد مصيره على الأقل إلى حد ما وفى بعض الوجوه.

ويستطرد توينبى بالتساؤل عما يعنيه تسليمنا بأن التاريخ يعيد نفسه – ليس بالمعنى الذى يقصده الحتميون بأن الإرادة الحرة هى مجرد وهم – وإنما بمعنى أن هذا الإتجاه نحو التكرار وهو أحد أدوات القدرة الخلاقة عما يعنيه فيما يتعلق بسؤاله الأساسى حول مستقبل الحضارة الغربية، ويُذكر توينبى بما لاحظه فى البداية بأن العالم الغربى قد أصبح فجأة قلقا للغاية حول مستقبله، وأن هذا القلق هو رد فعل طبيعى للوضع المرعب الذى يجد نفسه فيه اليوم. كما يُذكر بأن نظرة شاملة إلى التاريخ فى ضوء معرفتنا المتاحة اليوم عنه تظهر انه حتى الآن فإن التاريخ قد كرر نفسه حوالى عشرين مرة فيما أنتجه من مجتمعات وحضارات بشرية، كما تظهر أنه باستثناء الحضارة الغربية فإن كل هذه الحضارات قد ماتت بالفعل أو هى فى حالة احتضار، وزيادة على ذلك فإنه حين تدرس تاريخ هذه الحضارات الميته أو المحتضرة بالتفصيل وتفاعلها بعضها ببعض فإننا نجد دلائل لما يشبه خطا متكررا فى عملية انهيارها أو اضمحلالها ثم سقوطها النهائى Preackdown, decline and fall، وأنه من الطبيعى أن نسأل أنفسنا اليوم عما إذا كان هذا الفصل الخاص من التاريخ سوف يكرر نفسه حتما بالنسبة للحضارة الغربية المعاصرة وأن يكرره كقدر لا تستطيع أى حضارة أن تهرب منه. وحول هذا السؤال الحاسم يقرر توينبى بوضوح أنه فيما يتعلق به فإن إجابته عليه هى بالنفى ويفسر ذلك بأن الجهد الإنسانى لخلق مظهر جديد للحياة ليس عملا أو مشروعا سهلا وأن نجاحه النهائى يتحقق من خلال عملية من التجربة والخطأ ، والتى تقدم من خلال تجارب الفشل السابقة بوجه خاص – فرصة لتحقيق النجاح من خلال الحكمة التى يمكن اكتسابها من المعاناة السابقة. وبطبيعة الحال فإن مجرد الفشل السابق لا يضمن النجاح لمن يحاول من جديد، ولكنه لا يحكم عليه هو أيضا بالفشل. وعلى هذا فليس هناك ما يمنع الحضارة الغربية من أن تتبع السوابق التاريخية إذا ما اختارت الانتحار الجماعى، فالحضارات لا تفنى بالقتل ولكن بالانتحار الذاتى، ولذلك يعتبر توينبى إنه ليس محكوما أن يكرر التاريخ نفسه مع الحضارة الغربية الراهنة، ذلك أنه مفتوح أمامها ومن خلال جهودها الخاصة أن

تعطى للتاريخ – فى حالتها – تحولا جديدا غير مسبوق وأن يستخدم أهلها ما منُحوا من حرية الاختيار وأن لا يلقوا مسئوليتهم على أكتاف قوى أخرى كالطبيعة إذ يجب أن يمارسوها ويتحملوها بأنفسهم وهو أمر يتوقف عليهم فقط.

غير أن توينبى بعين المؤرخ الذى تابع الحضارات والتطورات التى لحقت بها وبعين الدارس الذى يتابع الواقع المعاصر الذى تعيشه حضارته الغربية ويرى ما يواجهها ويعرضها للخطر التى تعرضت له حضارات سابقة لا يتركها دون مشروع يقدمه لها لكى تنقذ نفسها، وهو مشروع يعتمد على ثلاث محاور فى السياسة وفى الاقتصاد وفى عالم الروح. ففى السياسة يقترح توينبى نظاما دستوريا تعاونيا لحكومة عالمية، وفى الاقتصاد يرى التوصل إلى حل وسط يمكن تطبيقه (يختلف وفقا للاحتياجات العملية للأماكن والأزمنة المختلفة) بين النظام الحر والاشتراكية، أما فى عالم الروح فهو ينصح أبناء حضارته بإقامة نظامهم العلمانى على أسس دينية، فإذا ما توصلت الحضارة الغربية الراهنة إلى هذه الحلول الثلاث، فقد تستطيع أن تشعر أنها كسبت معركتها الحالية لحضارتها وبقاءها. ويدرك توينبى أن ما يقدمه هو مشروع طموح وسوف يتطلب عملا شاقا وشجاعة عالية لتحقيق أى تقدم فى أيا من أهدافه الثلاث. ويعتقد توينبى أن من بين الأهداف الثلاثة فإن الهدف الدينى هو على المدى الطويل أهمهم جميعا وإن كان الهدفين الآخرين هم أكثرهم إلحاحا، حيث اعتقد أنه إذا ما فشلت الحضارة الغربية المعاصرة فيهما على المدى القصير فإنها قد تخسر إلى الأبد فرصتها فى تحقيق الإحياء الروحى الأمر الذى لا تستطيع أن تحققه فى الوقت الذى تشاءه ولكنه يتحقق إذا ما تحقق على الإطلاق بالخطو غير المتسرع والذى سوف تتدفق عنده أعمق تيارات الإبداع الروحي ويعتقد توينبى أن أكثر الأهداف إلحاحا هو الهدف السياسى، وربما كان توينبى مدفوعا فى هذا بفكرة فى مشروعه عن الحكومة العالمية عام ١٩٤٨، بفترة الحرب الباردة والتى كانت فى هذه الوقت فى قوتها واندفاعها وما ارتبط بهذا من مخاوف حرب ذرية بين الشرق والغرب، ولذلك اعتقد توينبى أن أفضل حل للمشكلة السياسية والحضارية لا للغرب فحسب بل للعالم بأسره إذا ما استطاعت الأمم المتحدة أن تتطور إلى نظام فعال للحكومة العالمية Universal Government.

وقد فصل توينبى تفكيره وتصوره للحكومة العالمية، إذ اعتبر أن الحروب بين الدول والصراعات بين الطبقات والتى تسبب فيها عدم العدالة كانت السبب الرئيسى فى تحطم الحضارات، لذلك فإن الدولة العالمية المستقبلة لا يجب فقط أن تكون قوية لكى تنقذ البشرية من ارتكاب الانتحار من خلال حرب نووية، بل يجب أيضا أن تنمى الرفاهية البشرية من خلال إعادة توزيع جذرى لخيرات الأرض، ذلك أنه خلال الخمسة آلاف عاما الماضية، فإن سادة الحضارات قد استغلوا بشكل بشع الطبقات الدنيا، وبنيت إنجازات الحضارات على ظهور الفلاحين الذين ظلوا يعيشون فى مستوى المجاعة. وقد دافعت القلة المحظوظة عن أنانيتها بالإصرار على أنها القّيمة على مستقبل الأجيال القادمة، وأنه من أجل المحافظة عليها وفى عالم من الندرة فإن ثمار الحضارة يجب أن تذهب إلى القلة وإلا فإنه لن يكون لها ثمار على الإطلاق وسوف تفقد البشرية مستقبلها . غير أنه إذا كانت هذه الدعوى صالحة فى الماضى فإن التقدم غير المسبوق للتكنولوجيا يجعلها غير صالحة اليوم، ومع هذا فإن ثلاثة أرباع البشرية تعيش تحت خط الفقر تناضل من أجل البقاء كما فعل أجدادنا الأولون، وإذا كانت الجماهير المتفككة فى الماضى قد قبلت ذلك بخنوع فإن حالة الاستسلام هذه قد تغيرت فى القرن العشرين، فعبر العالم تخلى الفقراء عن قدريتهم ويطالبون بالتحرر من الحاجة ولم يعد فى الإمكان إسكات صرختهم من أجل المساواة الاقتصادية.

ولكن كيف يمكن تحقيق مُثل العدالة الاجتماعية فى دولة المستقبل العالمية؟ يعتقد توينبى أن ذلك لا يتحقق بالولاء الجامد للرأسمالية أو الاشتراكية، فقد نبذ توينبى النظرية القائلة بأن الربح الفردى هو حق مقدس للفرد "فالحرية غير المقيدة للمشروع الاقتصادى الحر تعنى الحرية للأقلية الصغيرة التى تسيطر على الوسائل الإقتصادية للاستفادة من الحرية هنا"، أما بالنسبة للجماهير العريضة من الناس العاديين فإنها لا تعنى الحرية على الإطلاق، لذلك اعتقد توينبى أن نظاما مختلطا من المشروع الحر والاشتراكية يقدم أفضل الحلول، ولن تتقرر النسب التى تتكون من هذه الخلطة مقدما ولكن وفقا للخبرة كما سوف تخضع للتعديل . وهكذا فإن رجال الدولة الحكماء فى نظر توينبى يجب أن لا يربطوا أنفسهم بأيديلوجية معينة سواء كانت رأسمالية أو شيوعية، وهى الأيديلوجيات التى اكتسبت صفة شبه دينية

كما يجب أن لا يتحولوا إلى الأيديلوجية باعتبارها الدواء الشافى لأمراض المجتمع وإنما يجب أن يناضلوا من أجل حلول عملية معقولة لمشكلات معينة وقائمة على التوازن والاعتدال.

وقد اعتقد توينبى أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى العالم يمكن أن تضيق من خلال دولة عالمية قوية بما فيه الكفاية لكى تفرض الضرائب على الأمم الغنية لفائدة ومصلحة الأمم الأفقر، وكخطوة عاجلة، فقد حث الأمم الفقيرة على تشكيل اتحاد بينهم شبيه باتحاد نقابات العمال وتشددها "فإذا ما استطاعت الأغلبية الفقيرة من دول العالم أن تعلن الاضراب بشكل جماعى برفضها بيع عملها للبلدان الغنية ومواردها الأولية إلا وفق شروط أكثر عدالة، فإنها تستطيع أن تجبر البلدان الغنية على تغيير شروط التجارة لصالح الدول الفقيرة، وسيكون هذا انتصارا للعدالة.

أما مقترحات توينبى الأخرى للإصلاح الاجتماعى فى دولة المستقبل العالمية فقد تضمنت برامج حكومية لتحديد النسل وتوسيع التعليم وإعادة توجيه المبالغ بعيدا عن التسلح وبرامج الفضاء إلى إطعام وكساء لفقراء العالم. وقد نظر توينبى إلى برامج الفضاء باعتبارها مغامرة عظيمة ولكنه شبهها بالأهرامات وقصور فرساى: نماذج على المهارة البشرية ولكن على حساب الأغلبية الفقيرة، ولذلك فهى تثير الغضب الأخلاقى. كذلك دعا توينبى إلى وقف إنتاج السلع التى تشبع حاجات زائفة، وتوجيه الطاقات الإنتاجية نحو المعركة العالمية ضد الفقر، ولضمان البقاء فى المستقبل علينا أن نغير فكرة أن ثمار التكنولوجيا إنما تنتمى فقط لمنتجيها المباشرين وأن تشرك كل البشرية فى الثروة المادية التى تنتجها التكنولوجيا.

ولا يجب فى اعتبار توينبى أن تقتصر الدولة العالمية واهتماماتها على تلبية حاجات الإنسان المادية وحدها وإنما يجب أيضا أن تزوده بمخرج لطاقاته الروحية فى تحقيق أهدافه الحقيقية فى الحياة والتى هى أهداف روحية. ونحو هذه القضية يتعين إعادة تعليم وتربية الإنسان الصناعى وتمكينه من الاستخدام السليم لفراغه حتى يجد الإشباع فى الفكر والفن والدين وهى الميادين التى يستطيع الجانب الروحى فى الطبيعة البشرية أن يجد نطاقا لا نهائيا، فإذا نجحنا فى ذلك فقد نشهد ازدهارا جديدا وعصرا ثانيا للنهضة بدلا من تطور مجتمع طفيلى والذى يمثل بروليتاريا المدن فى الإمبراطورية الرومانية يعيش من أجل "الخبز ومهرجانات

التسلية والترفيه، يتحول فيها البشر إلى همجيين وبدائيين ووحوش ضارية إذا لم يحصلوا على ذلك".

غير أن توينبى قد حذر من أن النضال من أجل العدالة الاجتماعية لا يجب أن يُفهم على أنه إطلاق لمبادئ المساواة فى التعليم بشكل يخنق الأطفال الموهوبين وينزل بالتدريس والتعليم إلى المستويات الدنيا وبشكل يضر فى النهاية بالمصلحة العامة ذلك أن الأفراد الاستثنائيين كانوا دائما هم الذين يجددون خطى البشرية.

وفى عالم دولة المستقبل العالمية التى يتصورها توينبى فإن الغاية الحقيقية للحياة البشرية لا يمكن أن تكون تراكم كميات ضخمة من السلع الاستهلاكية بالشكل الذى تمليه الإعلانات عن هذه السلع وفى اتباعه لغاياته الروحية فى الحياة وبالشكل الذى يميزه عن غيره من الكائنات التى تشاركه فى سكنى الكرة الأرضية. "فالإنسان لا يحتاج إلا لكمية صغيرة من السلع الاستهلاكية، فقد حذرتنا الديانات العليا دائما ضد الانغماس الزائد فى إشباع حاجاتنا المادية لأنها تعتقد عن حق أن هذا عائق فى الحصول على الغاية الحقيقية للإنسان وهى سعيه وراء الأهداف الروحية" ولذلك حثت جميع الديانات الإنسان أن يعترف ويدرك مسئوليته الأخلاقية إزاء زميله الإنسان وأن لا يهتم فقط بحاجاته الخاصة وإنما أيضا بحاجات جيرانه، ويعتبر توينبى أنه فى عالم اليوم فإن هذه التعاليم موجهة إلى الأقلية الغربية الغنية ومن هنا حث توينبى الغربيين أن يلتزموا بالفضيلة الدينية فى إنكار الذات لكى يهتموا بالفقراء الذين يعانون فى العالم كله.

ويتصور توينبى أن أجيال المستقبل قد تنظر إلى الخلف بمشاعر من الدهشة وربما الاشمئزاز والخجل إلى مادية الغرب الحالية، ولأن مثل هذه الطاقات الكبيرة قد بُدد فى محاولات تحقيق والحصول على كميات كبيرة من الممتلكات المادية، ومع هذا فما زال فى وسع الإنسان الغربى الذى ضحى بروحه بتركيز حماسى زائد على السلع المادية أن يكفر عن نفسه باستخدام التكنولوجيا لصالح كل البشرية.

أما المشكلة التى شغلت توينبى وهو يفكر فى مستقبل الغرب الصناعى بوجه خاص فهى مشكلة أوقات الفراغ، ففى الماضى كانت الأقلية فقط هى التى تمتلك من التعليم والنظام الذى يمكنها من استخدام وقت الفراغ بشكل خلاق وهذه الأقلية

الخلاقة هى التى قدمت للبشرية كنوزا لا تقدر من الثقافة غير أنه لم يكن من السهل نقل اهتمامات واتجاهات هذه الأقلية إلى غيرها، لذلك عبر توينبى عن خشيته من تأثير وقت الفراغ بهذا الشكل المسرف على الجماهير غير المهيأة لاستخدامه بشكل سليم الأمر الذى سوف يؤدى إلى تدهور أخلاقى وثقافى، إن التكنولوجيا تخلق فراغا كبيرا ولكن الإنسان الصناعى غالبا ما يخاف الفراغ لأنه يواجهه بنفسه ويجعله معزولا بشكل مرعب، وهو يقضيه بطريقة إنسانية دنيا، وكمتفرج سلبى أمام التليفزيون والأحداث الرياضية ولذلك فإن مجتمع المستقبل يجب أن يقوم على النظام التعليمى الذى يشجع على النمو الجمالى الثقافى وتنمية طاقاته الروحية.

وفى استشراف توينبى لمستقبل العالم الغربى، هل كان متفائلا حول هذا المستقبل؟ لقد لاحظنا أنه فى الوقت الذى وافق توينبى على أن القرن العشرين قد زادت فيه الثروة المادية وتحسنت الظروف كثيرا بالنسبة للطبقات الفقيرة، إلا أنه لاحظ كذلك مالم يتنبأ به أحد قبل عام ١٩١٤ من حدوث "تراجع أخلاقى كبير فى معاملة الناس بعضهم للبعض" كما لاحظ، وكان يتحدث عام ١٩٧١، إن العالم الغربى قد أصبح أقل إنسانية بكثير عما كان عام ١٩١٣ وعلينا أن نواجه إمكانية أنه سيصبح أكثر لا إنسانية مع نهاية القرن. وقال توينبى أن العالم الذى تطبع بالثقافة والحضارة الغربية فى القرن العشرين يكشف عن تناقضات غير عادية، ففى الوقت الذى حلقت فيه المشاعر الإنسانية كما يبدو فى الإهتمام بحقوق الإنسان فى كل الشعوب تظهر قسوة الحروب الطبقية والقومية والعنصرية الإنسان بأسوأ ما فيه.

غير أن توينبى ظل يؤمن بأن البشر لديهم القدرة على أن يفضلوا الحياة على الموت والخير على الشر ويمتلكون ما يمكن أن يوجههم بشكل إنسانى وسليم فى سلوك رجال مثل غاندى ومارتن لوثر كنج. كما كان يؤمن أن الإنسان سوف يختار فى النهاية وإن كان بشكل متردد ومتأخر - الحياة على الانتحار بنبذه المؤسسات التى تقوم على السيادة والحرب والتى ظلت حتى الآن عزيزة على قلوب البشر، فإذا تخلت البشرية عن العقلية القبلية والآلهة المزيفين وتشربت بالعالمية والقيم الروحية فإنها ومن خلال معاناتها تكون قد اكتسبت الحكمة.

العالم والغرب

يعالج توينبى الغرب وحضارته ولكن من منظور أشمل ألا وهو علاقته ببقية العالم وشعوبه وأجناسه ، وتنطلق معالجة توينبى لهذه العلاقة من اعتقاده فى حقيقتين: الأولى أنه حتى فى قمة قوته فإن الغرب لم يكن هو الممثل الوحيد على مسرح التاريخ الحديث، والحقيقة الثانية، أنه فى المواجهة بين العالم والغرب التى تجرى منذ أربعة وخمسة قرون فإن العالم وليس الغرب هو الجانب الذى يمتلك خبرة ذات أهمية فى هذه المواجهة، إنه لم يكن الغرب الذى تعرض للضرب والإيذاء من العالم إنه العالم الذى ضرب وأوذى من الغرب.

وينصح توينبى الغربى الذى يريد أن يعالج هذا الموضوع بأن عليه أن يحاول للحظة أن ينسلخ من جلده الوطنى، وأن ينظر إلى المواجهة بين العالم والغرب من خلال عيون الأغلبية غير الغربية للبشرية، وأيا كان اختلاف الشعوب غير الغربية فى العالم عن بعضها البعض فى العنصر واللغة، والحضارة والدين ولكن إذا ما سألهم أى سائل غربى عن رأيهم فى الغرب فسوف يسمع منهم جميعا إجابة واحدة سواء كانوا روسا أو مسلمين أو هندوس أو صينيين أو يابانيين أو غيرهم، سوف يقولون له إن الغرب هو المعتدى فى العصور الحديثة وسوف يكون لكل منهم تجربته مع العدوان الغربى. سوف يذكروه الروس أن بلادهم قد تعرضت للغزو من الجيوش الغربية فى أعوام ١٦١٠، ١٧٠٩، ١٨١٢، ١٩١٥، ١٩٤١، وسوف تذكر له شعوب أفريقيا وآسيا أن البعثات التبشيرية الغربية والتجار والجنود الذين جاءوا من وراء البحار وتدفقوا على بلادهم منذ القرن ١٥، وسوف يذكره الآسيويون أيضا أنه خلال هذه الفترة احتل الغربيون نصيب الأسد من أراضى العالم الخالية فى الأمريكتين ، واستراليا، ونيوزيلاندا، وسوف يذكره الأفارقة أنهم قد أستعبدوا ورحلوا عبر الأطلنطى من أجل خدمة المستعمرين الأوروبيين للامريكتين وكأدوات حية لإشباع جشع سادتهم الغربيين للثروة. وسوف يذكره خلفة السكان الأصليين لأمريكا الشمالية أن أسلافهم قد اجتثوا لإتاحة مكان للمتطفلين الغربيين وعبيدهم الأفريقيين.

فى سبيل توضيح الحقائق والوقائع التاريخية السابقة مع علاقة الغرب مع الشعوب والأجناس وممثلى الحضارات التاريخية فى العالم، بحث توينبى علاقة

الغرب مع روسيا، وحضارات الشرق الأقصى فى الصين واليابان والهند.

وسوف نختار ، كنماذج عن علاقة الغرب بالعالم ما أوضحه توينبى عن علاقة الغرب بروسيا، وعلاقته بعالم الإسلام.

ويبدأ توينبى بتجربة روسيا مع الغرب باعتبار أن روسيا هى الجزء من العالم الذى يضم أغلبية غير أوربية، ورغم أن الروس أصبحوا مسيحيين، ومازال الكثير منهم مسيحيين، إلا أنهم لم يكونوا أبدا مسيحيين غربيين، فقد تحولت روسيا إلى المسيحية لا عن طريق روما مثلما تحولت انجلترا ، ولكن من خلال القسطنطينية، ورغم أصولهم المسيحية الواحدة، فإن المسيحيين الغربيين والشرقيين كانوا دائما غرباء عن بعضهم البعض بل ويحملون مشاعر متبادلة غير متعاطفة بل ومعادية، كما أن استسلام الروس للنظم الأوتوقراطية المركزية والتى أصبحت شيئا تقليديا فى حياة روسيا ، كانت كما يراها الغربيون أحد الصعاب فى علاقة روسيا مع الغرب.

وخلال القرون القليلة الماضية والتى كانت دائما تهديدا من الغرب لروسيا من القرن الثالث عشر حتى عام ١٩٤٥، فإن هذا التهديد قد أصبح أكثر خطورة بظهور الثورة الصناعية والتكنولوجية فى الغرب، فحين استخدم الغرب الأسلحة النارية تبعته روسيا، وفى القرن ١٦ استخدمت هذه الأسلحة الجديدة لهزيمة التتار فى وادى فولجا والشعوب الأكثر بدائية فى لاوزل وسيبيريا ، إلا أنه فى عام ١٦١٠ مكنت الأسلحة الغربية البولنديين من احتلال موسكو والسيطرة عليها لمدة عامين، وفى نفس الوقت تقريبا استطاع السويديون تهديد روسيا فى منفذها على البحر البلطيق، وقد كان رد الروس على هذه الأعمال العدوانية من الغرب هو تبنى تكنولوجيا الغرب كلية، ولم يقتصر هذا على الأدوات المادية لهذه التكنولوجيا بل شمل أيضا أكبر قدر من أسلوب الغرب فى الحياة باعتبار أنه ليس شيئا منفصلا عن التكنولوجيا الغربية، ويلاحظ توينبى أن هذه الثورة التكنولوجية والاجتماعية قد فرضت على الروس فى نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر من أعلى بواسطة عبقرية رجل هو بطرس الأكبر، وتقدم شخصية بطرس المفتاح لفهم علاقات العالم مع الغرب ليس فقط فى روسيا بل وفى كل مكان، فبطرس كان يمثل نموذج المصلح الأوتوقراطى فى إدخال الأساليب الغربية ، وهو الذى – خلال

القرنين ونصف الماضيين – قد أنقذ العالم من الوقوع كلية تحت السيطرة الغربية بإجبار العالم على تدريب وتهيئة نفسه لمقاومة العدوان الغربى بأسلحة غربية . وقد تبعت خطواته – بوعى أو بغير وعى – شخصيات مثل السلطان – سليم الثالث – ومحمود الثانى، وكمال أتاتورك فى تركيا ،ومحمد على باشا فى مصر، ورجال الدولة اليابانية الذين قادوا ثورة لتحديث اليابان فى ستينات القرن ١٨. وقد وضع بطرس الأكبر روسيا فى سباق تكنولوجى مع الغرب، وهو السباق الذى مازال قائما ، وخلال هذا السباق لم تكن روسيا تستطيع أن تركن إلى الراحة لأن الغرب كان دائما يقدم تحديا جديدا ، وقد وضع بطرس وخلفاؤه فى القرن الثامن عشر روسيا قريبا من مجاراة الغرب فى هذا الوقت وبشكل مكنها من هزيمة السويد بين عام ١٧٠٩، والغزاة الفرنسيين عام ١٨١٢، غير أن ثورة الغرب التكنولوجية فى القرن ١٩ وضعت روسيا من جديد فى المؤخرة بحيث هُزمت روسيا فىالحرب العالمية الأولى من الغزاة الألمان مثلما هُزمت قبل ذلك بمائتى عام من البولنديين والسويديين، وقد كانت هذه الهزيمة أحد الأسباب الرئيسية فى أن تحل الحكومة الشيوعية الأوتوقراطية محل القيصرية فى روسيا التى هزمتها التكنولوجيا الغربية الصناعية والعسكرية، وشرع النظام الشيوعى من ١٩٢٨ – ١٩٤١ فى أن يحقق لروسيا مرة أخرى ما حققه لها بطرس الأكبر منذ ٢٣٠ عاما مضت، فقد هزمت تكنولوجيا الثورة الشيوعية فى روسيا الغزاة الألمان فى الحرب الثانية، مثلما هزمت ثورة بطرس تكنولوجية الغزاة السويديين عام ١٧٠٩ والغزاة الفرنسيين عام ١٨١٢، أما الثورة التكنولوجية الثالثة التى واجهها الروس فهى تلك التى أطلقها حلفاؤهم الأمريكيين والغربيين بإلقائهم قنبلة ذرية على اليابان، ومنذ هذا اليوم والروس فى مسيرة قوية للحاق بهذه الثورة التى هددتهم، للمرة الثالثة، بوضعهم فى المؤخرة أما نتيجة هذا الحدث الثالث والمنافسة المستمرة بين روسيا والغرب، فإن توينبى يراها – حين قدم هذه الرؤية التاريخية لعلاقة الغرب بروسيا عام ١٩٤٨ – تكمن فى المستقبل. واتصالا بهذا يعتبر المحللون لانهيار النظام الشيوعى فى روسيا أنه انهزم أمام الغرب على جبهة السباق العملى والتكنولوجى واتساع الفجوة بينه وبين ما حققه الغرب فى الثورة الصناعية الثالثة فى مجال الحاسبات والالكترونات.

غير أن توينبى فى استعراضه للتجارب الروسية فى التحديث واللحاق بالغرب، وفى استعارتها للأساليب الغربية قارن بين محاولة روسيا فى عهد القيصرية، وبين محاولتها فى ظل النظام الشيوعى فيها، ففى هذه المحاولة الأخيرة كانت المرة الأولى التى تستعير فيها روسيا عقيدة أجنبية هى الماركسية والتى هى نتاج للفكر الغربى بينما حين تبنت روسيا العقيدة المسيحية فإنها قد جاءتها لا من الغرب ولكن من بيزنطة حيث تكتسب المسيحية شكلا غير غربى فى الشكل والروح، وفى القرن الخامس عشر فشلت محاولات الغرب لفرض المسيحية الغربية على روسيا.

ويعتقد توينبى أن قصة روسيا فى علاقتها التاريخية مع الغرب هى فى عدة نقاط تكرار لقضية قديمة لعبت فيها الحضارة اليونانية والرومانية دور الحضارة الغربية الحديثة، ولعب فيها الإسلام دور روسيا.

وإذا كانت الشيوعية قد وصفت بأنها هرطقة مسيحية ، فإن نفس هذا الوصف قد انطبق على الإسلام، وقد كسب الإسلام - شأنه شأن الشيوعية، وشق طريقة كبرنامج للإصلاح يعالج سوء الاستخدام فى الممارسة المعاصرة للمسيحية، كما أظهر نجاح الإسلام فى أيامه الأولى كيف يمكن أن يكون نداء الإصلاح قويا حين تكون العقيدة التى يهاجمها هذا النداء مترددة فى إصلاح طرقها وأساليبها ، كما توضح النجاحات العسكرية والسياسية الضخمة فى الفصول الأولى للإسلام لماذا كان الأتراك والقوى الإسلامية الأخرى مترددة فى اتباع سياسة بطرس الأكبر فى الصمود أمام الغرب بتبنى واستخدام الأسلحة والأدوات والمؤسسات والأفكار الغربية، فقد بدأت عملية بطرس الأكبر فى الأخذ بالأساليب التكنولوجية الغربية فى روسيا بعد أقل من مائة عام من رؤية روسيا لعاصمتها وقد احتلها البولنديين عامى ١٦١٠ - ١٦١٢ ، ومن ناحية أخرى مرت مائة عام وأكثر بعد كارثة هزيمة الأتراك على مشارف فيينا عام ١٦٨٣ قبل أن يأخذ سلطان تركى الخطوة الأولى فى تدريب القوات التركية وفقا للنموذج الغربى، كما مرت ٢٣٦ عاما قبل أن يدفع رجل دولة تركى بقوة أبناء وطنه لتبنى أسلوب الحياة الغربى وبدون أى تحفظ، غير أنه فى الفصل الأول من قصة تبنى تركيا للأساليب الغربية ، فإنه على

الأتراك الذين كانوا مقتنعين بسياسة تحديث تركيا لم يكونوا - قلبيا - يحبون الحضارة الغربية التى كانوا يدخلونها مجبرين، وكانت نيتهم تبنى أقل جرعة من هذه الحضارة وبشكل يمكن أن يبقى على رجل أوربا المريض حيا. مثل هذه الروح المتذمرة تسببت فى إجهاض دفعة بعد أخرى من الإصلاحات الغربية، وكان حكم التاريخ على مثل هذه المدرسة الغربية من أنصار التحديث الأتراك هو "فى كل مرة: القليل جدا، والمتأخر جدا" وقد كانت هذه المدرسة تتصور أن بإمكانها جعل تركيا تصمد أمام القوى الغربية لمجرد ارتداء الجنود الأتراك للزى العسكرى الغربى واستخدامهم الأسلحة الغربية، وبمجرد تدريب الضباط الأتراك بالتدريب المهنى الغربى، كل هذا فى نفس الوقت الذى يبقون فيه على كل جوانب الحياة التركية وعلى أسسها الإسلامية التقليدية.

ويواصل توينبى تقييمه لتجربة تركيا فى التعامل مع الغرب وحضارته فيعتبر أن سبب فشل السياسة القائمة على أقل جرعة من الحضارة الغربية، هو أن المصلحين الأتراك قد تعاموا عن الحقيقة التى أدركتها عبقرية مصلح آخر هو بطرس الأكبر، هذه الحقيقة، فيما يعتقد توينبى هى أن أية حضارة أو أى أسلوب فى الحياة هو كل لا يتجزأ، وحيث يعتمد فيه كل جزء على الآخر، فسر التفوق الغربى على بقية العالم فى فن الحرب من القرن السابع عشر فطالعا لا يكمن فى مجرد الأسلحة الغربية والتدريب الغربى، كما لا يكمن فى التكنولوجيا المدنية التى تزود المعدات العسكرية، إن هذا السر لا يمكن فهمه دون الأخذ فى الاعتبار كل مقومات الفكر والروح فى المجتمع الغربى، وفى واقع الأمر فإن فن الحرب الغربى كان دائما أحد وجوه طريقة الحياة الغربية ، وعلى هذا فإن المجتمع الأجنبى الذى يحاول أن يحصل ويمتلك هذا الفن دون أن يحيا حياة المجتمع الذى أنتجه، مقضى عليه بالفشل فى التمكن والسيطرة على هذا الفن.

وقد أظهرت التجارب والمحاولات الأولى للتحديث فى تركيا، فى تقدير توينبى، أنه لم يكن أمام الأتراك إلا خيارين، إما أن يدفعوا ثمن السياسة التى تعتمد على أقل جرعة من أساليب الحضارة الغربية ويتركوا أنفسهم فى طريق الانحدار، أو أن ينقذوا أنفسهم من الانقراض بأن يتبنوا عملية التحديث بكل قلوبهم وعقولهم،

وبعد أن وضع الأتراك أنفسهم على حافة الدمار باتباع الاختيار الأول، فقد أنقذوا أنفسهم – وقبل أن يصبح الوقت متأخرا جدا، بالانغماس فى طريق التحديث الغربى وبغير حدود تحت قيادة كمال أتاتورك، وكان معنى هذا الاختيار أن "العثمانيين" قد اعترفوا لأنفسهم بحقيقة أنه فى عملية التداخل والاتصال الحضارى فإن جانبا منه لابد أن يؤدى إلى جانب آخر، وأن تبنى الأسلحة الغربية والتدريب الغربى لابد أن يتبعه ليس فقط تحرير المرأة المسلمة وإنما استبدال اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وفصل الدين عن الدولة فى كل مجالات الحياة. ويواصل توينبى تقييمه لتأثير أخذ أتاتورك بالحضارة الغربية فى مجملها على المجتمع التركى فيقول إنه رغم أن ثمن هذا الاختيار كان أن يخضع الأتراك لنظام فاشى، وأن كان نظام الحزب الواحد الذى طبقه اتاتورك لن يصل إلى التطرف الشمولى – إلا أنه تطور بعد ذلك بشكل مبشر. ففى الانتخابات التركية العامة عام ١٩٥٠ تحولت تركيا من نظام الحزب الواحد إلى نظام الحزبين وبالقبول العام وبلا عنف أو أراقة دماء، وقبل الحزب الذى سيطر على الحكم لفترة طويلة إرادة الناخبين حين أجرى انتخابات حرة وبالاقتراع الحر، ثم بتقبله لنتيجة التصويت المعارض له كإشارة له على أنه لابد أن يعتزل السلطة وأن يدعو المعارضة لكى تحل محل حكومته ، كما أظهرت المعارضة من ناحيتها نفس الروح الدستورية.

وفى تقييمه النهائى للتجربة الروسية والتركية فى التعامل مع الحضارة الغربية، ينظر توينبى إلى رجال مثل بطرس الأكبر وكمال أتاتورك على أنهم نمط من الرجال يمتلك الرؤية النادرة التى مكنتهم من أن يدركوا أن المجتمع الذى يتعرض ويخضع لضغوط حضارة متقدمة وعدوانية وأكثر قوة يجب أن يختار ما بين الانقراض أو تملك نفس أسلوب هذه الحضارة الذى يمكنه من الصمود أمامها. ويعتبر توينبى أن هذه الرؤية وهذا الاختيار هو اتجاه إيجابى وبّناء ودليل على أن هذا الصنف من القادة هم حقا رجال دولة، وأن اختيارهم هذا كان انتصارا على الميول الطبيعية والتى كانت يمكن أن تعكس استجابة سلبية تجاه ما تمثله الحضارة القوية من أخطار وأن تشبهه فى ذلك استجابة المحارة التى تتعلق على نفسها، أو السلحفاة التى تنسحب وتنكمش على غطائها العظمى، أو النعامة التى تخبئ رأسها فى الرمال.

غير أن توينبى يعترف أن سياسة محاربة حضارة غربية وعدوانية بأسلحتها الخاصة سوف تثير شكوكا عميقة لدى العقول المحافظة والتى سوف تتهم رجالا مثل بطرس الأكبر وأتاتورك، بأنهم فى سبيل الدفاع عن الحصن وتقوية دفاعاته فإنهم فى الواقع يبيعونه، بينما كان الرد الصحيح - لدى هذه العقول المحافظة على تطفل الحضارة الغربية - هو التمسك بما طالبنا به الله الذى سوف يمنحنا من قوته الإلهية ما ندافع به ضد أعدائنا الكفار غير المؤمنين.

وفى سياق تتبع توينبى للحضارات ، تطوراتها وتفاعلاتها، والمواجهات بينها خاصة فى ضوء ما تطورت إليه من بروز وسيطرة الحضارة الغربية المعاصرة، يمد توينبى بصره إلى ما بعد عدة قرون من الآن كى يتساءل عما سوف يميزه مؤرخو المستقبل ويختاروه باعتبار أنه الحدث البارز لعصرنا الراهن، وحين ينظرون خلفهم للنصف الأول من القرن العشرين ويحاولون رؤية ورصد نشاطاته فى نسبها الصحيحة والتى يكشف عنها "بعض الأحيان رؤيتها من منظور زمنى أبعد"، ويتخيل توينبى أن مثل هذا الحدث الذى سيتوقف عنده مؤرخو المستقبل لن يكون من بين هذه الأحداث السياسية الاقتصادية المثيرة والمأساوية التى تحتل عناوين الصحف وتشغل تفكيرنا مثل الحروب، أو الثورات أو ما يحدث من مذابح أو مجاعات ، وإنما سيكون ذلك الشىء الذى لا يحوز غالبا على كل وعينا، أو يمكن أن نصنع منه عنوانا للصحف، أو تجذب مظاهره أنظارنا لأنها تقع وتبدو على سطح تيار الحياة، وتبعد أنظارنا فى نفس الوقت عن التحركات الأبطأ وغير الملموسة والتى تعمل تحت السطح وتتغلغل فى الأعماق. غير أن هذه التحركات الابطأ والأعمق هى فى الحقيقة فى نهاية الأمر هى التى تصنع التاريخ، وهى التى ستبدو ضخمة حين نستعيدها ونتأمل فيها، وحين تكون الأحداث المثيرة والعابرة قد تضاءلت وبدت فى نسبها الحقيقية. فالنظرة العقلية، مثل النظرة البصرية، سوف تبدو بشكل أعمق إذا ما وضع المراقب مسافة ما بينه وبين هدفه، فحين سافر مثلا إلى الولايات المتحدة من Lackcity إلى دنفر، فإن أفضل منظر لسلسلة الجبال الصخرية فيها أن يكون أقربها إليك، فحين تكون بالفعل فوق هذه الجبال فلن ترى شيئا غير القمم والتلال والأفاويد، ولكن حين تبتعد عن الجبال وتتجاوزها وتنظر إليها من الخلف وأنت طائر فوق السهول، عندئذ فقط تتحقق لك هذه الرؤية الواضحة لسلاسل الصخور ذاتها .

بهذه الرؤية يعتقد توينبى أن مؤرخى المستقبل سيقولون أن الحدث العظيم فى القرن العشرين هو الأثر الذى تركته الحضارة الغربية على كل المجتمعات التى تعيش فى عالم اليوم. وسوف يقولون عن هذا الأثر إنه كان من القوة والانتشار بالدرجة التى حول بها حياة كل ضحاياه من أعلى إلى أسفل، ومن الداخل إلى الخارج، مؤثرا فى السلوك، والنظرة، والمشاعر والعقائد للرجال والنساء والأطفال وبطريقة حميمة، لامسا أوتارا فى الروح البشرية التى تحركها قوى خارجية أيا كان شكلها وطبيعتها، ومع ثقته أن هذا ما سيقوله المؤرخون عن عصرنا حين ينظرون إليه من فترة قريبة نسبيا مثل عام ٢٠٤٧، ولكن ماذا سيقوله المؤرخون عام ٣٠٤٧؟

يعتقد توينبى أن هؤلاء قد يكون لديهم شيئا يقولونه أكثر إثارة للاهتمام من مؤرخى عام ٢٠٤٧ لأنهم فى مثل هذا الوقت سيكونون أكثر علما بتفاصيل وحقائق القصة التى قد تكون نحن اليوم فى فصل مبكر منها.

ويعتقد توينبى أن مؤرخى عام ٣٠٤٧ سيكتبوا مهتمين أساسا بالآثار المضادة Counter effects التى سيكون الضحايا قد تركوها فى حياة المعتدى، فمع عام ٣٠٤٧ فإن الحضارة الغربية كما عرفناها من ١٣٠٠ عاما ومنذ بزوغها منذ عصر الإسلام، قد تكون تحولت، وبشكل يفوق إدراكنا، وبالتأثيرات المضادة من حضارات أخرى ويعنى بها تأثيرات المسيحية الأورثوذكسية، والإسلام ، والهندوسية، ومن الشرق الأدنى. ومع عام ٤٠٤٧، فإن الفارق الذى يلوح واسعا اليوم بين الحضارة الغربية، كمعتدى ، والحضارات الأخرى لها، ربما تبدو غير ذى أهمية. وحين سيتلو الإشعاع المؤثر من الغرب بإشعاع آخر مضاد، فإن ما سيبقى هو خبرة عظيمة مشتركة لكل البشرية، وهى خبرة ستكون أعمق من الميراث الاجتماعى المحدود لحضارة ما وتفككها لأجزاء صغيرة نتيجة لصدامها مع الميراث الاجتماعى المحدود لحضارات أخرى، مثل هذا الصدام هو الذى سينشأ من حطامه حياة جديدة مشتركة.

ويعتبر توينبى إذا ما أخذنا الفترة الزمنية التى مرت حتى الآن للمواجهة بين الحضارة الغربية الحديثة ومعاصريها وبلغت ١٦٠٠ عاما، فقد يقول قائل إن هذه المواجهة قد بدأت بالهجوم العثمانى على أراضى الحضارة الغربية وبالرحلات الاستكشافية الغربية الكبيرة فى نهاية القرن ١٥ و ١٦ لعصرنا ، الأمر الذى يصنع

أربعة قرون ونصـف حتـى الوقت الراهن، وحتـى لـو افترضنـا أن عقـول وقلـوب الناس تتحرك بسرعة أكبر هذه الأيام، فإنه يبدو وكأننا مازلنا فقط فـى فصـل مبكـر مـن قصـة مواجهـة الحضـارة الغربيـة مـع حضـارات المكسيك وبـيرو والمسـيحية الأرثوذكسية والإسلام والهندوسية والشرق الأقصى، وفى هذه المواجهة بدأت تبـدو آثار عمل الحضارة الغربية على هذه الحضارات، أمـا الأثـر المضـاد المقـابل لهـذه الحضارة على الحضارة الغربيـة، فإنـه وإن كنـا نـراه الآن بصعوبـة، إلا أنـه حتمـا سيكون ضخما تجاه "التحركات الأولى" أو المؤشرات التى رآها توينبى علـى الأثـر المضـاد المقبـل للحضـارات الأخـرى علـى الحضـارة الغربيـة، عندمـا أطلـق هـذا التصور فى نهاية الأربعينيات، رأى توينبى هذا فيما حـدث فـى روسيا بعد الثـورة الشيوعية والتـى رأى خطورتهـا وأهميتهـا ليس فقط فـى القـوة الماديـة التـى بـدأت تمتلكها وإنما بما بدأ يظهر بالفعل من قوة وقدرة على تحويل عقول وأرواح غربيـة إلى أيديولوجية غير غربية، حيث تبنى الروس فلسفة علمانية اجتماعية غربية وهى الماركسية، والتى قد تدعى عن حق هرطقة مسيحية، وصفحـة انـتزعت مـن كتـاب المسيحية واعتبرت إنها تمثل وتحتوى الخـلاص النهـائى، إلا أن الـروس قد أخـذوا هذه العقيدة الغربية المنشقة وحولوها إلـى شـىء خـاص بهم وأعـادوا إطلاقهـا إلـى الغرب والعالم، وهذا التطور هو الذى دفـع توينبـى إلـى الاعتقـاد بأنـه يمثـل الطلقـة الأولى فى الهجوم المعادى المضاد للغرب. ومـع هـذا فـإن هـذه الطلقـة فـى تقديـره ستكون شيئا صغيرا جدا أمام التأثير والاستجابة المضادة التى يمكن أن تكـون أكـثر قوة وفعالية لحضارات مثل الهند والصين بطريقتها الخاصة على الحضارة الغربيـة والتى راعى توينبى أن تأثيرها على المدى الطويل قد يفوق تأثير ما تحاوله روسـيا بتجربتها الماركسية والشيوعية"(*).

(*) قد يكون تصـور توينبـى هـذا للأثـر المضـاد والمقبـل للحضـارات غير الغربيـة علـى الحضارة الغربية والتى تنبأ أنها ستكون أكثر قوة وفعالية من الأثر المضـاد للتجربـة الروسية وتبنيها للماركسية، هو الأساس الذى بنى عليه وطوره مـؤرخ معـاصر هـو صامويل هنتجتون وصاغ به نظريته عن تصادم الحضارات Clash of civilization، والتى استبدل فيها الماركسية بالإسلام، إلى جانب الحضارة الكونفوشية صانعـا منهـا ما أسماه :

The Confucian - Islamic connection.

حوارات

في السنوات الأخيرة من عمره، أجرى عددا من المفكرين والكتاب حوارات مع توينبى شملت نطاقا عريضا من القضايا التاريخية، والفلسفية، والمعاصرة فكانت اجابات توينبى على ما أثاره محاوروه بلورة وإعادة تأكيد وتوضيح لفلسفته فى التاريخ والحضارة والشئون البشرية.

وربما كان من أهم الحوارات ، ذلك الذى أجراه معه المفكر اليابانى : Daisaku ikeda والذى امتد لعدة أيام ، وتأتى قيمته من عدة وجوه، فقد جرى فى نهاية عمر توينبى وقد تبلورت وجهات نظره حول القضايا التاريخية والبشرية، كما قد شمل نطاقا عريضا من هذه القضايا امتدت من اهتمامات الأفراد المباشرة، إلى اهتمامات المجتمعات المعاصرة، فالديمقراطية والتعليم والحروب والتسليح والبيئة، ومدى استجابة البشرية للتحديات التى تواجهها مثل الانفجار السكانى، والتلوث، وتضاؤل المصادر الطبيعية والتقدم العلمى، إلى مشكلات دينية مثل الخير والشر والضمير والحب والقيم البشرية العليا. كذلك جاءت قيمة هذا الحوار من أنه جرى بين توينبى ابن الحضارة الغربية ، ومحاوره الذى يمثل إحدى حضارات الشرق الأقصى : حضارتان تختلفان فى منابعهما التاريخية والدينية.

وبالنظر إلى هذا النطاق العريض من القضايا التى شملها هذا الحوار، فسوف نتخير من موضوعاته نماذج تتصل أساسا بالاهتمامات البشرية المعاصرة، ورؤية توينبى لها.

وبداءة، وفى حوارهما حول مستقبل البشرية، فقد اتفق توينبى وأكد على أنه فى الفصل التالى من التاريخ، فسوف تنجح البشرية فى التوحد سياسيا وروحيا، وكان اكيدا أكثر أملا من توينبى فى أن هذا التغيير العظيم يمكن أن يتحقق بشكل إرادى وعلى أساس من المساواة بين كل أجزاء الجنس البشرى دون سيطرة جانب منه على الآخر، أما توينبى فقد كان بوجه عام أكثر تشاؤما إذ توقع أن على البشرية أن تدفع ثمنا غاليا فى تحقيق هذا التغيير الكبير فى الأهداف والاتجاه والمساواة، وهو التغيير الذى لا غنى عنه لبقاء البشرية. فهل كان تشاؤم توينبى

يرجع إلى سنه المتقدم حيث يميل المرء إلى الإعتقاد أن العالم يتجه إلى الهلاك، أم لأنه غربى وأنه يشارك – إلى حد ما – أوزوالد سبنلجر اعتقاده – أننا فى القرن العشرين نشهد اضمحلال الغرب؟ أم لأنه – كمؤرخ – يعى بوجه خاص – وربما بشكل مسرف – الفشل التراجيدى الذى واجهته البشرية من قبل على المستوى السياسى والروحى وهو الفشل الذى يزداد تناقضاته مع الإنجازات المدهشة للبشرية فى مجال التكنولوجيا . كذلك ربما كان الاختلاف فى التقاليد الدينية بين توينبى ومحاوره الآسيوى والتى تربيا فى ظلها سبب آخر فى خوف توينبى من أن الفصل القادم فى تاريخ البشرية قد يكون أكثر عنفا ووحشية. فقد نشأ توينبى على المسيحية أما محاوره فهو بوذى. وقد انتشرت كلا من المسيحية والبوذية بشكل واسع ولكن وسائل ونتائج انتشارهما قد اختلفت. فالبوذية – التى انتشرت بالوسائل السلمية فقط– قد ارتضت أن تتعايش بشكل ودى وسلمى مع الديانات الأخرى والفلسفات التى وجدتها قائمة بالفعل فى المناطق التى نشأت فيها ، فقد أقامت البوذية اتفاقا وتعايشا وديا مع الديانة التاوية Taoism ومع الكونفوشية فى الصين، والشسينتو Shimto فى اليابان . وعلى النقيض من البوذية، فإن المسيحية تقوم على عقلية مقصورة عليها Exclusive minded وفى عدد من الحالات فرضت المسيحية بالقوة مثلما حدث مع أغلبية السكان فى الإمبراطورية الرومانية وعلى شعوب المكسيك وبيرو، ومثل هذا الوعى بهذا الجانب المظلم فى تاريخ المسيحية يجعل المسيحى أكثر شكا من البوذى حول إمكانية تحقيق إنجاز اجتماعى عظيم بشكل سلمى.

وقد كان من القضايا التى ناقشها المفكر اليابانى مع توينبى هى قضية تأثير الأدب على المجتمع وتقدمه ومدى مساهمته فى المشكلات التى قد يواجهها ، وقد طرح اكيدا ملاحظة جان بول سارتر فى تساؤله عما يفعله ويقدمه الأدب لمن يعانون من المجاعة، وقد رد توينبى على ذلك بقوله إن الإجابة ستصبح واضحة إذا ما تساءلنا أيضا عما يمكن أن يفعله البحث العلمى لمن يعانون من المجاعة، إن البحث العلمى لن يستطيع أن يقدم شيئا لهم إذ ما جعل إطعام الجائعين هو هدفه المقصود، وإذا ما اقتصر نشاطه فى محاولة تحقيق هذه الرغبة العملية، فالعلم حين يعمل وعلى عينيه هذه الغشاوة فسوف يفشل لأنه إذ يجد نفسه بهذه الأهداف

المحدودة فسوف يقصر فى تحقيق أهداف اكتشافات علمية جديدة. فالبحث العلمى يقود إلى اكتشافات جديدة فقط حين يُمارس لذاته ولإشباع الشغف والفضول العلمى والفكرى دون أن تسيطر عليه فكرة أو هدفا نفعيا مسبقاً، وكثير من الاكتشافات هى التى حققها البحث الذى جرى دون دافع اجتماعى أو نفعى، والذى تحول بدون قصد - وعن غير توقع، وبشكل مثير للدهشة، لأن تكون له تطبيقات اجتماعية مقبلة. وقد تأكدت حقيقة هذا التناقض الظاهر دائما وبشكل مقنع لدرجة أن كثيرا من الشركات الخاصة تقدم منحا دراسية للعلماء والباحثين وتطلق يدهم فى اختيار أى موضوع للبحث يقودهم إليه شغفهم العلمى بدلا من توجيه بحثهم نحو أهداف معينة قد يكون لها قيمة ومنفعة مباشرة للاهتمامات والمصالح التجارية للشركة. ويعتبر توينبى أن هذه الحقيقة حول العلم تنطبق على الأدب. فالأعمال الأدبية لروائى القرن التاسع عشر تولوستوى كان لها تأثير عملى فى إيقاظ ضمير الأقلية من الأغنياء الأقوياء لكى تعمل - حتى ولو على حساب امتيازاتهم الخاصة - لإصلاح المجتمع بطرق عدة بما فيها إطعام من يتعرضون للجوع. ويفصل توينبى اتجاه تولوستوى نحو قضايا الحياة والبشر والمجتمع بأنه مر بمرحلتين، وقد انعكس موقفه واتجاهه فى أعماله خلال كل مرحلة، ففى المرحلة التى سبقت تحوله الروحى والاجتماعى، كتب تولوستوى بشكل تلقائى وببساطة لكى يشبع رغبته فى خلق عمل أدبى، أما بعد تحوله فقد اعتقد أن ممارسة الأدب للأدب ذاته هو لون من ألوان الانغماس الذاتى Self indulgence ، ولا يعبر عن مسئولية اجتماعية ، وأن على الفنان أن يكرس بشكل متعمد عبقريته من أجل رفاهية البشرية، ولهذا كانت أعمال تولوستوى بعد مرحلة تحوله الفكرى موجهة نحو هذه الغاية المحدودة وما تستهدف من أهداف غيرية. ولم تكن أعماله خلال مرحلة إبداعه الأولى متفوقة فقط بالمعايير الفنية والأدبية المحضة، ولكنها كانت أيضا أكثر تأثيرا على المستوى الاجتماعى من أعماله بعد تحوله الفكرى والتى كانت تستهدف بشكل متعمد تحقيق نتائج اجتماعية. لقد كانت أعماله الأدبية الأولى تحرك من يقرأها بجدارتها الأدبية ولذلك كانت تلهمهم وتدفعهم لكى يحاولوا إصلاح المجتمع وفقا لخطوط ضمنها رواياته ولكنها لم تكن الهدف المباشر لكتابتها. وقد تبنى النظام الشيوعى فى الاتحاد

السوفيتي وجهة نظر تولوستوى بعد مرحلة تحوله حول وظيفة الأدب ، واعتبرت الحكومة السوفيتية أن العمل الأدبي يجب أن يوجه مباشرة لخدمة أهداف أيديولوجية واجتماعية، وكان نتيجة ذلك تدهور ملحوظ في كلٍ من قيمة الأدب وأثره الاجتماعي، ففي ظل النظام الشيوعي أصيب الأدباء الروس الذين تبنوا الخط الرسمي بالعقم، أما هؤلاء الذين كتبوا بشكل تلقائي وكما حركتهم رؤيتهم الخلاقة، فقد اعتكفوا، وأصيبوا بالإحباط حتى ولو لم يتعرضوا لاضطهاد واضح.

ورغم اعتقاد توينبى أن الفن الحقيقي من أجل الفن في ذاته هو فن من أجل الحياة أيضاً، إلا أنه يعتقد كذلك أن الفن يصيب نفسه بالعقم إذا حول الفنان نفسه إلى مجرد متخصص مهني يكتب في المقام الأول وبشكل متخصص فقط لزملائه المتخصصين بدلا من أن يكتب لزملائه من البشر، وهو لا يرى أن هذا فن من أجل الفن وإنما من أجل من يمارسه وهو ما يمثل وجهة نظر زائفة حتى بالنسبة لمصلحة من يمارس الفن نفسه، ولذلك فإنه يعتقد أنه من سوء الحظ ومن أعراض المرض الاجتماعي أن يصبح الأدب، أو العلم، أو العمل الأكاديمي، قاصرا على فئة قليلة، فالأدب يجب أن يواجه شرور وصعاب الحياة دون أن ييأس من قدرة الطبيعة البشرية على أن تستجيب بقوة ونجاح لتحديات الحياة ، فعند توينبى أننا يجب أن نناضل لكي نكسب معركة الحياة ورغم أننا لا نملك ضمانا لذلك.

وردا على ما أثاره محاوره من أن عديدا من الحضارات قد أبقت على التمييز والفوارق بين المثقفين والجماهير، الأمر الذي يجب أن تنبذه الحضارة المعاصرة، عقب توينبى بأنه يعتقد أن من أعراض المرض الاجتماعي أن يكون المجتمع مقسما إلى مثقفين وجماهير، وحين يشعر كل جانب أن الجانب الآخر بعيد وغريب عنه، فقد عانت روسيا من هذا المرض الاجتماعي بعد عملية التحديث والتغريب المفاجيء والسريع والمفروض من أعلى التي قام بها بطرس الأكبر، وكانت الانتيلجنسيا الروسية هي من خلق هذه العملية ، غير أن هذا لم يحقق السعادة لهذه الطبقة حيث إن تحولهم إلى نظام الحياة الغربي قد فصلهم عن مواطنيهم الروس دون أن يجعلهم يشعرون تماما بالألفة مع الغرب. وفي القرن ١٩ عاش العديد منهم في البلدان الغربية بعضهم بشكل إرادي وبعضهم كلاجئين

سياسيين، ذلك أن تعليمهم الغربى قد باعد بينهم وبين النظام الأوتوقراطى الروسى، وهو نفس النظام الذى كان سبب وجودهم. وقد كانت الروايات الروسية العظيمة فى القرن التاسع عشر نتاجا للعبقرية الروسية التى ألهمتها الوعكة التى ألمت بالانتيلجنسيا، وثمة مشهد مضىء فى رواية آنا كارنينا لتولوستوى يدعو فيه ليفين، والوحيد من ملاك الأرض الذين تحولوا بالليبرالية الغربية، عبيده ويعرض عليهم أن يعطيهم نصيبا من أرضه، وقد بدا فلاحية العبيد فى شك وحيرة من هذا العرض، فهم لم يفهموا دوافع سادتهم، ولم يعتقدوا فى اخلاصهم، الأمر الذى أثار غضب السادة وسخطهم، وهكذا لم تحقق هذه المواجهة نتائج ايجابية. وقد صنعت الانتيلجنسيا الروسية ثورة عام ١٩١٧، وقد كان بعض أعضائها قد قضى سنوات عديدة فى المنفى فى الغرب وكان برنامجهم هو إصلاح روسيا وطريقها فى الحياة، وفقا لما يسمى بالأساليب الغربية المتقدمة، وحين جاءوا إلى السلطة تكررت مشاهد مثل التى ظهرت فى آنا كارنينا بين الملاك – والعبيد على نطاق واسع فى واقع الحياة ، وقد أساء كلٌ من الانتيلجنسيا الروسية والجماهير الروسية فهم بعضهم البعض ، ومنذ أن استولت الانتيلجنسيا الروسية على السلطة فرضوا على الشعب الروسى الايديلوجية الغربية عنه بالقوة وبنفس الطريقة التى اتبعها النظام الاوتوقراطى الذى أطاحت به الانتيلجنسيا كرسول للتغيير والتنوير الغربى. ويستطرد توينبى فى شرح العلاقة بين الفئات والطبقة المثقفة والجماهير فيقول أن حين تصبح فئة المثقفين بعيدة وغريبة عن الجماهير، فإنها تتجه إلى أن تفقد الصلة مع واقع الحياة البشرية ، بينما تميل الجماهير إلى التجرد من الحضارة الثقافية التى يجب أن تصل إلى كل كائن بشرى، بينما بكل طاقته على ذلك وفى العالم الغربى اليوم، ثمة اتجاها يوحى لدى المثقفين بأن يشكلوا دوائر مغلقة من المتخصصين المهنيين الذين يعيشون ويعملون بشكل قاصر عليهم فقط. ويحتقر المثقفون الجمهور لكونه جاهلا وغير متخصص، أما الجمهور فهو يتجاهل المثقفين لأنه يجدهم غير واضحين وغير عمليين، ومثل هذه العلاقة والاغتراب بين المثقفين والجمهور أمر سيىء لكلٍ منهما وسيىء بالنسبة للمجتمع فى مجموعه.

واتصالا بطبيعة وميول المثقفين يأسف توينبى ولا يوافق على التخصص المبالغ فيه، ذلك أن هذا يزيد من غربتهم عن الجمهور ويبعد المثقفين عن المجتمع.

فالتخصص يميل إلى أن يحتقر الرجل العادى غير المتخصص، وغير المتخصصين يميلون باستبعاد المتخصصين باعتبارهم غير مفيدين، لمن يقم خارج نطاق تخصصهم وزمرتهم الطبقية.. ويقول توينبى إنه شخصيا يعتقد أن غير المتخصصين على صواب فالتخصص له وجهة نظر مشوهة حتى فى نطاق وفعل تخصصه إذا ما مارسه فى عزلة عن الناس وعن بيئته ومحيطه، كما أن التخصص أصبح أسلوبا سيئا لمحاولة فهم والتعامل مع العالم الحديث لأن كل المجتمعات وكل جوانب الحياة، وكل ألوان النشاط أصبحت متداخلة بشكل متزايد ويعتمد بعضها على البعض فنحن نعيش فى عالم نحتاج فيه أن نمتلك النظرة الشاملة والعالمية.

ولكى يصبح الإنسان مثقفا يتطلب فى نظر توينبى ثلاثة أمور : المقدرة الثقافية والفكرية، والموهبة الطبيعية، وهى موزعة بشكل غير متساوى جدا، والارادة على العمل الشاق والتصرف بشكل سليم. فيعتقد توينبى أن المثقف والمجتمع لهما التزامات أخلاقية متبادلة Mutual Morale obligation فالمثقف مدين لمجتمعه بأن يقوم بخدمة اجتماعية مفيدة مقابل ما استثمره المجتمع فى تعليمه، وفى المقابل على المجتمع أن يكافئ المثقف بشكل كافٍ لتمكينه من أداء عمله بشكل كفء، على افتراض أن هذا العمل ذو قيمة اجتماعية.

غير أن توينبى فى تصوره للمثقف يعتقد أنه وقبل كل شىء فإنه من المستحيل أن يكون مثقفا أو فنانا دون أن يكون إنسانا أولا، فالإنسان حيوان اجتماعى تتداخل بشكل معقد فيه مشكلات الحياة البشرية سواء تلك الخاصة بعصره وبيئته أو ذات الصفة العالمية والدائمة. والمثقف أو الفنان الذى يتجاهل المشكلات العالمية إنما يسفه نفسه، ذلك أنه بتجاهله لهذه المشكلات وتعاميه عنها سوف يفتقد ما يلهمه، ومن ثم لن يكون هو نفسه أو ما يصدر عنه ملهما. لقد شهد التاريخ مفكرين وفنانين عظام ركزوا طاقاتهم على المشكلات الكونية والدائمة ولكنهم لم يتجاوبوا مع مشكلات زمانهم ومكانهم، فلم يكن أفلاطون يشعر روحيا أنه فى وطنه أثينا، ولم يشارك جوته سياسيا أو حتى عاطفيا فى المواجهة بين إلمانيا ونابليون رغم أنه كان على وعى بأن هذه المواجهة كانت نقطة تحول فى تاريخ بلاده، وعلى النقيض المتطرف، كان ماركس ولينين منغمسين فى مشكلات زمانهم لدرجة

أن ماركس قد حول فلسفته إلى برنامج للعمل السياسى وواصل لينين برنامج ماركس فى روسيا، بالاستيلاء على السلطة واستخدامها فى صنع الثورة الروسية.

ويوافق توينبى على أن العلاقة الصحيحة والصحية للمثقف أو الفنان مع مشكلات زمانه ومكانه هى الطريق الوسط، فيجب أن لا ينأى بنفسه تماما أو يتباعد عن هذه المشكلات الرئيسية، كما أنه يجب أن لا يكون منغمساً كلية فيها. وكمثال على رجال الأدب الذين اهتدوا إلى هذا الطريق الوسط يشير توينبى إلى شخصيات القرن ١٩ من الروائيين الروس: تورجنيف، ودوستيوفسكى، وتولوستوى. وكأمثلة على الفلاسفة الذين وجدوا هذا الطريق الوسط وسلكوه يشير إلى زينو Zino مؤسس المدرسة الرواقية، وأبوقريس Epicurus وهما الفيلسوفان اللذان عاشا فى جيل لم تعد فيه المدنية City Sate تقدم إطارا اجتماعيا وأخلاقيا مشبعا للحياة اليونانية، الأمر الذى وجد اليونانين أنفسهم موجهون روحيا بشكل خاطىء، ولذلك فقد صاغ الفيلسوفان لمعاصريهم اتجاهات جديدة ضمنت استمرار الحياة اليونانية بعد أن انهار نظام المدنية Citystare الذى كان يشكل المؤسسة الرئيسية والتقليدية لليونانيين.

ويخلص توينبى فى رؤيته لطبيعة ودور المثقف ووضعه فى مجتمعه إلى أن قاعدة السلوك الفرنسى : Nobless Oblige هى قاعدة صالحة لسلوك المثقفين إذا ما ترجمنا عبارة Nobless بأنها تعنى لا النبالة الارستوقراطية الموروثة وإنما الالتزام الأخلاقى الكامن فى الكائن البشرى. وقد كان سقراط، مثل تلميذه الأرستقراطى أفلاطون ، مشغولا أساسا بالمشكلات الكونية الدائمة، ولكنه- على عكس أفلاطون - اشترك أيضا فى الحياة السياسية لمدينته أثينا. ورغم أن سقراط لم يخرج عن طريقه لكى يتدخل فى السياسة المثيرة للجدل والخلاف، إلا أنه لم يتردد فى أن يفعل ذلك إذا ما وجد أن هذا العمل جزءا من واجبه المدنى. وقد صوت مرة فى الجمعية الوطنية الأثينية ضد مشروع يحوز على التأييد الشعبى ولكنه كان خاطئا أخلاقيا، وقد قبل أن يحكم عليه بالموت حتى لا يقول شيئا ضد ما يعتقده، وأن يعترف بأن ما يُدرّسه للتلاميذ مفسد لهم أخلاقيا، وبعد أن أدين رفض أن يستغل فرصة الهرب إلى مكان يلجأ إليه فى الخارج، وهكذا كان ما اتخذه -

سقراط من مواقف وسط بين عدم الانغماس فى العمل السياسى، وعدم التهرب منه هو فى نظر توينبى السلوك القويم الذى يجب أن يسلكه المثقف أو الفنان.

ويطرح اكيدا على توينبى عددا من الأسئلة والملاحظات المتصلة بالنظام الديموقراطى، جوانبه الإيجابية وكذلك ثغراته ونقاط الضعف فيه، والشخصيات التى يفرزها النظام الانتخابى والحزبى، ثم طبيعة وخصائص القيادة فى ظل النظام الديموقراطى.

ويعقب توينبى على هذه الملاحظات بأن القيادة فى ظل النظام الديموقراطى هو عمل أدق وأصعب من القيادة فى النظم والمؤسسات الديكتاتورية القائمة على الجاذبية الشخصية للقائد. فالقائد فى النظم الديكتاتورية يحصل على طاعة رعاياه جزئيا بالقوة، وجزئيا بإثارة العواطف غير العقلانية، أما فى ظل النظام الديموقراطى فإن على القائد أن يحصل على تعاون مواطنيه بإقناعهم بشكل وعلى أسس عقلانية أن السياسات التى يقترحها عليهم سليمة، كما أن عليه أن يدير هذا الحوار بعيدا عن العاطفة . وإذا أريد للنظام الديموقراطى أن يعمل بشكل مرضى فإنه يحتاج لقائد لا يتحايل على شعبه أو يتعامل ويخاطبهم بشكل ديماجوجى، وإنما يحتاج لشخص يمتلك هذه القيمة الأخلاقية والثقافية والفكرية التى تجعل مواطنيه يتبعون قيادته، ولكن دون إكراه أو إثارة عاطفية، مثل هذا القائد قد يكون من الصعب توفره، وإذا ما وجد فقد يتردد فى أن يقوم بهذه المهمة الصعبة فى توجيه مواطنيه، التى قد لا ينال فى النهاية الشكر عليها. ومن الواضح أن دور القائد له أهمية اجتماعية بالغة وللقيام بهذا الدور، وبدوافع غير أنانية أو شخصية، يتطلب درجة عالية جدا من الروح العامة. والقائد الديموقراطى عليه أن يسلك طريقا وسطا بين بديلين غير مرغوبين، وفرصته فى المناورة بينهما ضئيلة، فمن ناحية ، فهو قد يتعرض للإغراء وينساق لرغبات أبناء دائرته حتى لو كان يرى أن هذه الرغبات خاطئة وموجهة بشكل خاطئ، فإذا ما فعل ذلك، فيكون قد تنازل تقريبا عن دوره فى القيادة وخان الثقة فيه، أما البديل الآخر غير المقبول فهو أن يخدع ناخبيه ويحملهم على التصويت لسياسة يعتقد فى صحتها ولكنهم كانوا سيرفضونها إذا ما شرحت لهم بشكل صريح، وفى هذا أيضا خيانة للثقة فيه، وزيادة على ذلك، فإن خدعته من المحتمل أن تتكشف عاجلاً أو آجلاً وعندئذ سوف تشوه سمعته وتضعف

الثقة فيه. وفى الدول غير الديموقراطية والتى يحكم فيها القادة بممارسة القوة وإثارة المشاعر فإن الشخصيات المتطرفة التى تستولى وتسيطر عليها أفكارها ومبادئها مثل روبسبير ولينين هم فى بعض الأحيان أكثر خطورة ومجلبة للكارثة من الشخصيات التى تدرجت فى الحياة السياسية ومناصبها وتميزت بالدهاء واللباقة والحسابات البعيدة عن العاطفة مثل الإمبراطور الصينى هان ليوبانج Hanliu Pang والإمبراطور الرومانى أوغسطس Augustus والخليفة العربى معاوية، وكلا منهم تولى السلطة فى إمبراطورية حلت عليها كارثة وفشلت نتيجة عدم كياسة قادة سابقين، وقد نجحوا بما تمتعوا به من لباقة اجتماعية فى إعادة تأسيس نظام إمبراطورى منهار ووضعه على أسس تضمن له الثبات والاستمرار . وقد لا يكون ما أظهره هؤلاء القادة من لباقة موضع إعجاب أخلاقى ولكنها فى الظروف التى واجهوها، كانت ضرورة سياسية. ويلخص توينبى رأيه فى القائد وفى النظام وكيف يعمل بكفاءة بالغة بقوله إنه لا يعتقد أن أى نظام من أى لون يمكن أن يعمل بنجاح بواسطة قائد ذو قدرة متواضعة Mediocre.

ويناقش توينبى الرأى القائل بأن الديمقراطية والتى تعتمد على الإنتخابات إنما تفرز قادة وشخصيات قد لا تتميز بالضرورة بكفاءتها وقدرتها وثقافتها وانما بمقدار قدرتها على جاذبيتها للجماهير والتلاعب بمشاعرها وعواطفها فى الوقت الذى تتجاهل فيه الجماهير شخصيات وقادة قادرين على الخدمة العامة وحريصين على ذلك، ولكنهم فقراء فى القدرة على الإعلان عن أنفسهم. بل إنه فى بعض الأحيان كان الجمهور قد يستخدم النظام الديموقراطى كى ينتخب رجلا ويضعه فى السلطة الكاملة تقريباً وينتهى به الأمر أن يدمر الديمقراطية وينصب نفسه كديكتاتور، ويؤمن توينبى على هذه المخاوف ويعتبر أن الخطر الدائم هو فى صعوبة انتخاب شخصيات عامة جديرة حقا بالمنصب، فالحكومات الديموقراطية تفرخ ساسة عادة ما يجعلون من السياسة حياتهم ويحترفون فن حث إقناع الناخبين على وضعهم فى السلطة وإبقائهم فيها وممارسة هذا الفن يمكن السياسيين من كسب الانتخابات ولكنه لا يمكنهم من كسب احترام الناخبين وخاصة على المدى الطويل، فرغم انتخاب الناخبين لهم إلا أنهم يحتقرونهم. وتشويه سمعة السياسيين يعنى فى النهاية تشويه سمعة وإضعاف النظام السياسى الدستورى الذى يمكن الساسة ـ من

خلال خطأ الناخبين – من أن ينتخبوا لمناصب هم غير جديرين بها. وقد اتسعت حديثا الفجوة بين ادعاءات السياسيين وبين أدائهم الحقيقى، فقد أدرك الرأى العام لا أخلاقية وعدم كفاءة السياسيين وإن كان لم يجد بديلا لهم أكثر احتراما وأكثر كفاءة لانتخابهم. وهذا الإدراك من جانب الناخبين لحقيقة الساسة وتبدد الوهم حولهم من ناحية والفشل من ناحية أخرى فى ترجمة هذا الإدراك إلى إصلاح حقيقى، إنما يضع الديموقراطية موضع الشك والعجز.

ويرجع توينبى هذا التهديد الذى تتعرض له الديمقراطية إلى التزايد لتضخم الإعداد والأحجام والذى يراه نتيجة لسببين : الانفجار السكانى، وتزايد نطاق عمليات وحجم إنتاج التكنولوجيا ، فالإنسان يشعر الآن بأنه قزم أمام بيئته سواء كانت بيئته الاجتماعية أم المادية والمصطنعة والتى فرضت على البيئة الطبيعية، نتيجة للانتصارات الضخمة والتكنولوجيا، فبيئة الإنسان الاجتماعية قد تجردت اليوم بشكل محزن وكئيب من طابعها الشخصى، كما أن بيئته المادية أصبحت ضخمة بشكل ساحر. مثل هذه الخبرة تمتص قدرة الإنسان إلى الاعتقاد بأن بإمكانه أن يكون مسئولا بشكل فعال ومشاركا فى مجتمعه، وهذا الشكل يقلل من احترامه لنفسه، ويخفض من معاييره الأخلاقية، لذلك يرى توينبى أنه قد أصبح من الأهمية البالغة تمكين الفرد من أن يستمر فى أن يكون فعالا فى الحياة الاجتماعية، وحتى يصبح هذا ممكنا يجب إقناع الفرد بأن المؤسسات الحالية تقدم له الفرصة كى يكون فعالا، ولكى تقنعه بذلك يجب أن تجعل مؤسساتنا حقيقية وقائمة على أساس المشاركة، وربما كان خلق مثل هذه المؤسسات أمرا صعبا، ولكن لا يجب أن تخضع للاستسلام وأساليبه التى تتلو ذلك.

ويفصح توينبى عن عيوب وثغرات أكثر فى الديمقراطية ومناقشتها فىالإطار العام النظم السياسية التى نشأت وعرفت حتى الآن ، والتى فى ضوئها يعتبر أنه رغم أن الإنسان قد أثبت أنه ذو قدرة خلاقة وقوية ومدهشة فى مجال التكنولوجيا، إلا أنه أقل خصوبة فى نظمه السياسية. فقد تعددت النظم السياسية البديلة التى اكتشفت حتى الآن، ومعظم هذه النظم حين طبقت أثبتت التجربة أنها غير مرضية، وإذا أردنا أن نحكم على النظام الديموقراطى فى نطاق هذه النظم

فإنما يجب أن يفعل هذا فى ضوء سلبى : إن الديمقراطية هـى أقل النظم السياسية التى عرفها الإنسان سوءً، نجد أن هذا لا ينفى عن الديمقراطية عيوبها وثغراتها، وأحد أخطر هذه الثغرات هو ميل الناس فى ظل النظم الديمقراطية الزمانية إلى إعطاء الأولوية فى ولائهم إلى مجموعة صغيرة وأقل أهمية بدلا من منح هذا الولاء إلى المجتمع الواسع والأكثر أهمية ، ويعنى توينبى بهذا أن الكثيرين يفضلون مصلحة الحزب السياسى عن مصلحة الأمة ويضعون مصالح الأمة فوق مصالح البشرية، أما الثغرة الخطيرة الثانية فى الديمقراطية فهى غياب الجانب الخلقى ، فأحيانا يمارس على السياسيين الضغط لجعلهم يتبعون خط الحزب حتى لو كان هذا الخط ضد ضمائرهم، وهناك من الساسة من هم مستعدون تماما للتضحية بضميرهم من أجل الطموح الشخصى وعلى نطاق واسع، ولتأييد سياسات لا يؤمنون بها فى الحقيقة من أجل الغايات السياسية.

فى ضوء هذه المطالب فى النظام والتجربة الديموقراطية، كما طبقت حتى الآن، يعتقد توينبى أن أفضل جهاز للحكم هو ذلك الذى يقوم على الجدارة والاستحقاق Merirocracy غير أن مثل هذا الجهاز القائم على الجدارة، والمختار بشكل متميز يجب أن لا يعفى من الإشراف الشعبى طالما أن أكثر البشر قدرة وامتلاكا للروح والضمير العام ما زالوا معرضين للضعف البشرى، وطالما أن السلطة فى ذاتها مفسدة، وكما أن مثل هذا الجهاز القائم على الجدارة الشخصية يجب أن يختار بالانتخاب العام، ذلك أن من أكبر ملامح الديمقراطية سواء المباشرة أو التمثيلية أن الساسة الديمقراطيين يجعلون من انتخابهم وإعادة انتخابهم أولويتهم الأولى ويتصرفون دائما وعيونهم على هذا الهدف وبدافع منه أكثر مما يعتقدون أنه حقا فى الصالح العام، لذلك فإن توينبى يؤيد الاحتفاظ بدستور ديمقراطى وتمثيلى لاختيار الجهاز الذى سيمارس الإشراف الشعبى على الحكومة، ولكنه يستبعد الانتخاب كمنهج لاختبار العناصر التى ستحكم عن طريق الجدارة والاستحقاق، ويود أن يرى هذا الجهاز الحاكم يتم اختياره جزئيا بواسطة الاختيار المشترك. وجزئيا بالترشيح من جانب مؤسسات هامة ومحترمة اجتماعيا وثقافيا غير سياسية واقتصادية.

غير أن توينبى فى النهاية يعتبر أن أكثر الأساليب فعالية للتعامل مع ثغرات الديمقراطية هى رفع القدرة والمستوى الثقافى والأخلاقى للجماهير، وإن كان يرى أن عامل الوقت يعمل ضد ذلك، فالتغيرات التكنولوجية المتسارعة قد أدت بالتالى إلى تغيرات اجتماعية وسياسية سريعة، وقد تفاجأ الجماهير وتؤخذ على غرة بكارثة تقع قبل أن يكون لديها الوقت للحصول على المستوى الثقافى والأخلاقى الذى يمكنها من أن ترتفع بالسياسة فوق مستوى الخطر.

ويقر توينبى أن النظام الذى يقترحه ويقوم على الجدارة والاستحقاق، ورغم أنه كان ناجحا فى مجموعه فى بعض الحالات كما حدث فى الهند والصين، إلا أنه قد اكتشف أيضا، وايد حقيقة أن كل أنواع السلطة مفسدة، وأن السلطة المطلقة تفسد بشكل مطلق حسب تعبير اللورد انتونى، فنظام الحكم القائم على جدارة قد يفعل ما يعتقد بأمانة أنه فى صالح الجماهير، غير أنه قد يغفل هذه المصالح بانعزاله عند الجماهير أو بالرغبة الباطنة فى أمر يبدو باستمرار وكأنه لا يمكن الاستغناء عنه، وعلى هذا فإن توينبى ، مثلا يرى من عناصر الضعف فى النظام الديمقراطى البرلمان القائم على الانتخاب العام، يراها أيضا فى النظام الذى يقترحه، الأمر الذى يجعله ينتهى بصورة متشائمة وبالتخوف من أن البشرية بسجلها الماضى السيىء فى السياسة ونظمها السياسية، فإن نظمها قد تكون أكثر سوءا فى المستقبل.

فى الحوار حول مستقبل العالم والقوى الرئيسية فيه أعطى توينبى أهمية كبيرة لما يمكن أن تساهم به شرق آسيا، وركز بوجه خاص على كل من الصين واليابان، وقد عبر عن اعتقاده أن شرق آسيا تحتفظ برصيد تاريخى ضخم يمكن أن يجعل منها المحور الجغرافى والثقافى لتوحيد العالم(*) . وقد حدد توينبى هذا الرصيد فى:

١- خبرة الشعب الصينى خلال الواحد وعشرين قرنا الأخيرة فى الإبقاء على إمبراطورية كنوذج إقليمى لدولة عالمية بالمعنى الخدمى لذلك.

(*) تشير خبرة العقدين السابقين إلى صحة نظر توينبى من حيث ما بلغته الصين واليابان، فضلا عن منطقة شرق اسيا، من مكانة فى موازين القوى وترشيحها لأن تكون فى صدارة القوى العظمى فى القرن الواحد والعشرين.

٢- الروح العالمية Ecumenical التى تشربها الشعب الصينى طوال هذا الفصل الطويل من التاريخ الصينى.

٣- الطابع الإنسانى الذى تتميز به الفلسفة الكنفوشيوسية.

٤- الطابع العقلانى التى تتميز به كلا من الفلسفة الكونوفوشيوسية والبوذية.

٥- الإحساس بما سينطوى عليه العالم من سر لا يدرك إدراكا كاملاً، وإدراك أن المحاولات البشرية للسيطرة على الكون ليست إلا هزيمة للذات، ومثل هذا الأمر هو أثمن ما توصلت إليه الفلسفة التاوية من خلال الحدس.

٦- الاعتقاد بأنه أهم من محاولة السيطرة على الطبيعة البشرية ، فإن هدف الإنسان يجب أن يكون هو العيش فى تناسق معها، وهو الإدراك الذى تشارك فيه البوذية وفلسفة الشينتو Shinto الفسلفة الصينية بكل مدارسها.

٧- ما أثبته الشعب اليابانى من أنه من الممكن لشعوب شرق آسيا هزيمة الشعوب الغربية فى لعبتهم الحديثة بتطبيق العلم على كل من التكنولوجيا المدنية والعسكرية.

٨- الشجاعة التى أظهرها كلا من اليابانيين والفيتناميين فى الجرأة على تحدى الغرب، وهى الشجاعة التى يعتقد توينبى أنها سوف تستمر، ولكنها سوف تكرس فى الفصل التالى من تاريخ البشرية فى المشروع البناء لمساعدة البشرية فى وضع أمورها سلميا فى الوضع الصحيح.

ويستشهد توينبى حول تطور الدور الذى يمكن أن تلعبه الصين بأنها قد ظلت موحدة سياسيا وتدار وتحكم بشكل فعال معظم الوقت منذ توحدها السياسى عام ٢٢١ بعد الميلاد، وأنها لم تنتكس إلى الفوضى السياسية إلا بشكل مؤقت ومن وقت لآخر، وأن التاريخ الصينى كان فى مجموعه هو تاريخ الإمبراطورية الصينية الموجودة والتى مازالت باقية وقائمة فى صورة جمهورية الصين الشعبية كقصة نجاح سياسى. وهى فى ذلك تتناقض بشكل حاد مع تاريخ الإمبراطورية الرومانية التى حاولت وفشلت فى أن تقيم وحدة سياسية دائمة للغرب.

هذه القراءة للتاريخ الصينى هى التى تجعل توينبى يقول إنه من المتصور أن من يوحد العالم فى المستقبل لن يكون قوة أو دولة غربية أو حتى دولة تتبنى وتأخذ بالأساليب الغربية كلية Westernised وإنما ستكون الصين، بل إنه يرجع هذه المكانة المدهشة التى تتمتع بها الصين فى العالم اليوم إلى هذا التصور وربما الخوف من الصين ودورها فى المستقبل.

أما اليابان فإن توينبى ينظر إليها ويعلق أهمية على دورها ومكانتها فى المستقبل، باعتبار إنها كانت أكثر القوى غير الأوروبية نجاحًا فى التعامل مع المسألة الغربية، فقد كانت أكثر نجاحا من الروس ومن الصينيين والهندوس والمسلمين، وفى تجربتها مع الغرب فقد جربت اليابان ٤ طرق مختلفة، ففى القرن السادس عشر قلد اليابانيون بشكل غير نقدى الحضارة الأوربية، إلا أنهم حين تعرفوا على الغرب عن قرب عكسوا سياستهم تلك، بل وذهبوا إلى آماد بعيدة فى العمل على عزل أنفسهم عن الغرب وحضارته. ولكن حين أدركوا أن سياسة الغرب هذه ليست عملية، صنعوا حركة الإصلاح The Meji Restoration وحاولوا تجربة أن يعيشوا فى وقت واحد ولأهداف مختلفة، فى عالمين، : فى العالم الحضرى الحديث من أجل اللحاق بالتكنولوجيا والاقتصاد والعلاقات الدولية والتجارية والدبلوماسية والحرب، وفى العالم اليابانى التقليدى من الجانب الثقافى والروحى للحياة الداخلية. نجد أن هذه المحاولة الثالثة فى التعامل مع الحضارة الغربية انتهت بكارثة لليابان عام ١٩٤٥، ومنذ ذلك، والشعب اليابانى يخوض تجربة رابعة، وقوام هذه التجربة هو تعويض الهزيمة العسكرية فى الحرب الثانية بضرب الغرب فى المجال غير العسكرى.

وفى مجال التكنولوجيا الذى برع الغرب فيه فقد نجح اليابانيون فى هذا بشكل مثير، ورغم هذا فالتكنولوجيا فيما يعتقد توينبى ليست إلا واحدا من شئون البشر، وليست أكثرها أهمية، فالجانب الروحى للكائن أكثر أهمية من الجانب المادى فيه، ولأن هذا أيضا اعتقاد الشعب اليابانى ، فإنهم يسألون أنفسهم اليوم : هل ركزنا جهودنا واهتمامنا فقط على الجانب التكنولوجى وبشكل أهملنا معه الجانب الروحى؟ وهل كان انتصارنا بعد الحرب مليئا بالثغرات ؟ وهل وازنا

انتصارنا التكنولوجي بنصر روحي مواز؟ فإن لم نكن قد فعلنا ألا يجب أن يكون هذا هو هدفنا الأساسي اليوم، وإذا كان الأمر كذلك ما هو الدور الروحي لليابان في عالم اليوم؟

ويعتبر توينبي أن اليابانيين وحدهم هم القادرون على الإجابة على هذه الأسئلة، ذلك أنه من المخاطرة أن يحاول الأجنبي ذلك حتى ولو كان يحمل الإحترام والعاطفة للشعب الياباني، ومع هذا فإن توينبي يخاطر بتقديم ما يسميه اقتراحا، فيقول إن اليابانيين قد أثبتوا الآن قدرتهم على التفوق في التكنولوجيا الحديثة، إلا أنه من الثابت أنه في كل مكان تخرج هذه التكنولوجيا عن نطاق السيطرة، وفي عملية إنتاج الثروة المادية وهي العملية التي نتج عنها تلوثا روحيا ماديا، الأمر الذي يفرض على البشرية أن تضع التكنولوجيا الحديثة في مكانها الصحيح لا بمعنى التقليل من إنجازاتها وإنما أن تكبحها، وهو ما يعني كبح الجشع البشري الذي هو أقدم بكثير من التكنولوجيا، فهو قديم قدم الحياة نفسها، ويعتقد توينبي أن اليابانيين مؤهلين لهذه المهمة، فهم يمتلكون المصادر الروحية اللازمة لذلك، فديانات وفلسفات أسلافهم: الشينتو والبوذية، تدعوان لالتزام الإنسان الأخلاقي بالتعاون مع الطبيعة لخير البشرية، ومما يجعل هذه المهمة أكثر إلحاحا اليوم أن الطريق الغربي في اعتقاد توينبي يتجه بالعالم إلى الكارثة بينما يستطيع الشعب الياباني أن يقود العالم عبر طريق أكثر أمنا وسعادة، فقد تملك اليابانيون وسيطروا على التكنولوجيا الغربية دون أن يخسروا تقاليدهم الروحية الخاصة، وهي التقاليد التي تقدم الترياق الروحي الصحيح للتلوث الروحي الذي أحدثته التكنولوجيا الحديثة وتجريدها الحياة البشرية من إنسانيتها، فالتقاليد اليابانية تدافع عن الطبيعة غير البشرية مثلما تدافع عن كرامة الإنسان.

وحين طرح المفكر الياباني أمام توينبي النظريتين المتعارضتين لاثنين من المفكرين الصينيين الكونفوشيين، والتي يدافع فيها الأول عن الطبيعة الخيرة للإنسان وأن الخير متأصل فيها، بينما تبنى الآخر مفهوم أن الشر هو أصل الطبيعة الإنسانية، عقب توينبي بقوله إنه يعتقد أن الطبيعة البشرية ليست في الأصل خيرا أو شرا كاملا، بل إن كلا من الخير والشر كامن فيها، وإن كانت نسبة كلا منهما قد تختلف من إنسان لآخر، إلا أنه لم يكن هناك أبدا كائن بشري يتملكه الخير أو الشر

بشكل مطلق، ويعتبر توينبى أن هذا المزيج من الخير والشر فى الطبيعة البشرية هو نتيجة للعلاقة بين الكائن الحى والكون، فالكائن الحى هو جزئيا منفصل عن بقية العالم، ولكنه جزئيا أيضا متصل به، وقد يحاول الكائن الحى أن يسيطر على بقية الكون واستغلاله بمعنى أن يجعل من نفسه مركز الكون كله ومبرر وجوده ، وطالما أتبع الكائن البشرى هذه الرغبة الجشعة فإن سلوكه سيكون شريرا، ولكن الإنسان قد يختار البديل الآخر ويكرس نفسه للعالم ولخدمة مصالحه وليست مصلحته الخاصة، وإلى الحد الذى يتبع فيه الإنسان هذا الخيار ، فإن الكون سيكون خيرا. فخبرة الإنسان عن نفسه وعن الآخرين تكشف عن صراع مستمر بين هذه الدوافع فى كل كائن بشرى، ويبدأ هذا الصراع مع بزوغ الوعى لدى الإنسان وينتهى فقط بعجزه أو موته.

وهكذا يرى توينبى أن الميل الطبيعى للإنسان هو أن يحاول السيطرة على بقية الكون واستغلاله، ولكن كبديل آخر، فإنه يستطيع أن يكرس نفسه لأشياء وأناس آخرين، ولكن هذه الغيرية على نقيض الأنانية، لا تتحقق إلا من خلال ممارسة الإنسان للثورة على ذاته وفى تحكمه فيها والتزامه نظاما من إنكار الذات والتضحية بها إذا تطلبت الضرورة ، وربما كان من المستحيل إخماد الرغبة فى الإنسان كلية إلا فى حالة إفناء الذات ، كما أنه من بين الصعوبة جدا توجيه رغبة الإنسان بطريقة تقوم كلية على الحب، وحتى الآن فإن قلة ضئيلة من الكائنات البشرية هى التى حاولت إما أن تخمد رغباتها كلية أو أن تكرس نفسها كلية للحب، وهذا ما يفسر كون المجتمع البشرى حتى الآن غير أخلاقى بشكل مأساوى وغير ناجح اجتماعيا خاصة إذا حكمت عليه بمعايير ومستويات السلوك التى يمثلها الضمير.

ويعتقد توينبى أن المستوى المتوسط للسلوك الأخلاقى لم يتحسن، وليس ثمة دليل على أن ما يسمى بالمجتمعات المتحضرة هى أعلى أخلاقيًا مما يسمى بالمجتمعات البدائية والتقدم الذى نسميه المدنية ليس إلا تقدما فى العلم والتكنولوجيا بالقوة، وليس تحسنا فى الأخلاقيات، فكل تقدم فى التكنولوجيا يحقق زيادة فى القوة التى يمكن أن تستخدم إما فى سبيل الخير أو الشر، وأكثر ما يزيد المخاوف والحذر فى المجتمع المعاصر أن القوة التى منحتها التكنولوجيا للبشر قد زادت بشكل غير مسبوق بينما ظل المستوى الأخلاقى لمن يمتلكون هذه القوة من البشر فى مكانه وربما انحدر فعلا.

ويستخلص توينبى من كل هذا أن بقاء البشرية اليوم محفوف بالمخاطر أكثر مما كان عليه فى أى وقت منذ أقامت البشرية تفوقها وسيطرتها على الطبيعة وأساءت استخدام هذا التفوق بمده بالأهداف الشيطانية للأنانية البشرية وهو ما يمثل خطورة أكثر من الزلازل، وتفجر البراكين والعواصف والفيضانات والفيروسات.

غير أن توينبى يعتبر أن القوة التى أنتجها العلم وتطبيقاته فى التكنولوجيا وزادت من قوة البشر على بعضهم البعض وعلى الطبيعة غير البشرية، هذه القوة هى عنصر محايد أخلاقيا، ذلك أنه يمكن استخدامها سواء فى الخير أو الشر على السواء، أو تزيد الحجم المادى للأثر الطيب أو الشرير للأفعال، فالطاقة الذرية التى تستخدم من أجل الشر تستطيع أن تقتل الملايين من الناس فى لحظة، وعلى العكس من ذلك فإن القوة التى منحها تقدم علم الطب للأطباء يمكن أن تنقذ ملايين الأرواح التى تسقط ضحية البكتريا أو الفيروسات. وهكذا، فإن تأثير القوة التى تولدها تكنولوجيا العلم على الحياة البشرية تعتمد على المستوى الأخلاقى لمن يسيطر على هذه القوة.

وفى حوار مع الكاتب : G.R. Orban حرص توينبى على أن يوضح موقفه من الحضارة الغربية المعاصرة وتحليله لها؛ اتصالا بالنقد الذى وجه له خاصة خلال الحرب العالمية الثانية حين شكك فى قدرة الغرب على هزيمة هتلر. وقد أوضح توينبى موقفه ورؤيته أنه فى عام ١٩٤٠ لم يكن يرى بوضوح كيف يمكن للغرب أن يخرج منتصراً فى صراعه مع هتلر والنازية، ولكنه افترض - مثلما فعل غيره - ضرورة استمرار الغرب فى القتال، أما بعد معركة بيرل هاربر فقد بدأ يتأكد أن الغرب سوف ينتصر، وعلى هذا يفرق توينبى بين عدم وضوح إمكانية هزيمة هتلر فى البداية، وبين تمنى النجاح له كما اتهمه نقاده، إذ فى الواقع أنه، شأن أى إنسان غربى آخر ، تمنى من صميم قلبه الهزيمة لهتلر.

وواصل توينبى توضيح موقفه بقوله إنه إنسان غربى وله مصلحة فى مستقبل الغرب، وأنه يقدر الحضارة الغربية وأنه لا يود أن يراها تموت، غير أنه من ناحية أخرى، فإنه كان دائما معاديا للإمبريالية ومؤيدا لضحايا الظلم وأنه تمنى دائماً أن يرى سيطرة الغرب على العالم تنخفض إلى المستوى الطبيعى للعلاقة،

وأن تنتهى المساواة بين الحضارات الأخرى فى العالم، ويضرب توينبى مثلا على تأييده حكومة العمال فى بريطانيا وتشجيعها على منح الاستقلال للهند وباكستان وسيلان عام ١٩٤٧، وكل هذا يختلف عن الادعاء بأنه كان يود للغرب أن يضمحل. وفى حواره مع محدثه، ذكر توينبى بأنه كان دائم الحذر فى التنبؤ حول الحضارات القائمة لأننا ندرك أننا فى منتصف الرؤية وأنه حين يتأمل الماضى فإنه يستطيع أن يرى أنماطا من الحالات المنتظمة للتاريخ، ورغم اعترافه بأن هذه الأنماط والحالات هى موضع خلاف ونقاش، إلا أن هذا لا يعنى أن الإنسان يستطيع أن يحدد أنماطا جارية أو مستقبلة، فيتنبأ مثلا بأن الغرب سوف يسقط أولا يسقط أو أن تطور آخر سوف يحدث له أولا يحدث، فمن المستحيل التنبؤ بذلك لأن هناك دائما عنصرًا من عدم إمكان التنبؤ فضلا عن الإرادة الحرة فى الشئون البشرية.

وردا على من وصفوا فلسفته للتاريخ بأنها رؤية عاطفية ومتحيزة، أوضح توينبى فى هذا الحوار أن أحداً لا يستطيع أن يدعى أنه غير متحيز. ذلك أننا جميعا ممثلين فى الدراما التى نشهدها، وربما أمكن للقائد البشرى فى دراسته للذرة أو الإلكترونات أن يكون متفرجًا تماما – وحتى فى هذا فإن الأمر ليس أكيدا أما فى دراسته لسوك البشر فإنه لا يستطيع أن يقف موقف المتفرج. إنه يستطيع أن يكون متفرجًا ولكنه أيضًا مشاركاً، ذلك أننا جميعا نشترك فى المصير الإنسانى، ويعتقد توينبى أن المؤرخ فى هذا لا يستطيع أن يتهرب من ارتباطه الشخصى بهذا المصدر.

أما الحوار الثالث فهو الذى أجراه معه ابنه فيليب توينبى، فى هذا الحوار كان من أهم القضايا التى طُرحت رؤية توينبى لأمريكا وللأمريكيين وما لاحظه ابنه من أن مشاعره نحوهم مختلطة، فرغم أنه مغرم جدا بهم إلا أنه لا يشعر بالراحة تجاه بعض سياساتهم. ويُؤمن توينبى على ذلك بعدة أسباب منها المعايير التى يحددون بها قيمهم، فإن تجعل حجم الاستهلاك هو معيار الحياة لهو شىء مقيت حقا وتزييف أكيد للقيم الحقيقية، أما مرجع عدم ارتياح توينبى الآخر من الاتجاهات الأمريكية فهو قلقه حول ما يمكن أن يفعلوه تجاه القضايا البشرية، وكان

أكثر ما تخوف منه فى هذا الشأن أنهم لم يختبروا فى بلدهم حرباً حقيقية ولم يحدث هذا إلا فى الحرب الأهلية فى الجنوب إلا أن هذا كان منذ وقت بعيد وبشكل يبدو غير طبيعى، فليس هناك شخص واحد فى أمريكا له خبرة مباشرة بالحرب فى بلده، وبذلك فإن توينبى يشعر أنهم حين يتحدثون عما يمكن تحمله من الخسائر فى حرب ما فإنهم لا يعرفون عما يتحدثون، كما عبر توينبى عن أنزعاجه مما يلمسه من ولع الأمريكيين بالقتال، وتذكر زيارة له للبنتاجون وكيف تملكه شعور بالرعب حين زار وزير الحرب الأمريكى فى مكتبه، حيث وجد على كل الموائد والكراسى وفى كل مكان نماذج للصواريخ وكان الوزير يشعر بالسعادة لها مثل طفل يحيط نفسه بألعابه.

وفى الحوار مع ابنه فيليب أجاب توينبى أيضا على موقفه من إسرائيل ورفضه زيارتها أو أن يحاضر فيها، فقال إنه لا يشعر أن اللاجئين اليهود الذين جيىء بهم إلى فلسطين مسئولون عما حدث، ولكن الزعماء الصهاينة هم المسئولون عن ذلك وكذلك الحكومات البريطانية والأمريكية، ذلك أنه حين بدأ هتلر عمليات الاضطهاد كان على الغرب أن يفتح أبوابه لكل اللاجئين اليهود منهم وغير اليهود، وهو ما لم يحدث على نطاق واسع وكاف، واعتقد توينبى أن إسرائيل هى حالة أخرى من حالات العدوان الغربى ضد الشرق، وقد يكون هذا موضع خلاف كبير، ولكنها بالتأكيد حالة سكان جاءوا من الغرب ليغتصبوا أرض الآخرين ويحتلونها بالقوة، كما كان الحال فى روسيا والكنغو والجزائر.

وحين لاحظ ابنه أنه شخصيا ينظر إلى اليهود باعتبارهم غرقى يتعلقون بالمجداف، عقب توينبى: إنهم يتعلقون به ويدفعون أصحاب المجداف الشرعيين من فوقه، وهو ما فعله اليهود حين سرقوا من العرب أراضيهم وممتلكاتهم، وحين يسأل الابن أباه عما إذا كان ما يقوله هو تبسيطا شديداً للقضية، وأن ما حدث هو تاريخ معقد من الوصاية، تبعها الجلاء الإنجليزى عن فلسطين والحرب التى بدأها العرب، يعقب توينبى بأن بلاده تتحمل مسئولية ضخمة لأن البريطانيين لم يحزموا أمرهم فيما ستكون عليه سياستهم فقد كانت لهم السلطة المطلقة فى فلسطين، وكان العرب عاجزين، ولم يكن فى إمكان اليهود الهجرة إلى فلسطين دون رحيل البريطانيين

وفـى اللحظـة الأخيرة لـم يقرروا مـا إذا كـانوا سيسـمحون لليهـود بالاستمرار فـى الهجرة إلى فلسطين، حتى يصبحوا هم الأغلبية ، أم يصروا علـى أن تظـل الغالبيـة عربية، ويعتبر توينبى أن هذه السياسة البريطانية كانت تنطوى على قدر كبـير مـن عدم المسئولية، وكانت أسوأ ما تعرض لـه الشـعبان اليهـودى والفلسـطينى، كذلـك يحمل توينبى الولايات المتحدة مسئولية كبيرة، فالأمريكيون يعرفون اليهـود ولكنهـم لم يسمعوا أبدا عن العرب، ولديهم شعور أن المواطنين الأصليين ليست لهم حقـوق، وقد نظروا إلى العرب فى فلسطين نظرتهم إلى الهنود الحمر الأمريكيين.

توينبى ونقاده

على الرغم من ثمة اتفاقا بين شراح توينبى ونقاده على أن دراسته عن التاريخ كانت عملا ضخما واستثنائيا على المستوى النوعى والكمى لم يجرؤ أحد أن يقوم به من قبل، إلا أن فكره ومنهجه قد جعلته يبدو بمعانى عديدة غريبا فى القرن العشرين، ففى الوقت الذى اتجه فيه الباحثون فى فروع مختلفة إلى مجالات ضيقة من التخصص، اختار توينبى أن يكتب تاريخًا عالميا، وفى عصر التشرذم الثقافى والفكرى تصور توينبى معنى شاملاً وراء حقائق التاريخ. وفى عصر يقيم المعرفة وفقا لمستويات وضعها العلم، اتجه توينبى، إلى أن يستمد جذوره من الشعر والدين والأساطير. وفى عصر علمانى، رأى توينبى الدين باعتباره الهدف الرئيسى فى الحياة، والاهتمام الرئيسى للمؤرخ. وفى زمن من القلق الاجتماعى، والتشويش والاضطراب الأخلاقى، حث توينبى الإنسان أن يجد اليقين فى القمم الروحية والأخلاقية . مثل هذا الفكر وهذا المنهج كان لابد أن يثير ويعرض توينبى للنقد، والنقد العنيف الجارح فى بعض الأحيان.

فقد حدد الأستاذ Pitrim Sorkim فى دراسة له عن دراسة توينبى للتاريخ تحت عنوان : Toynbee Philisophy of History أربعة مآخذ ، أولها أن حجم الدراسة جاء ضخما جدا وقد كان من الممكن إيجازه دون أن يفتقد وضوحه أو اكتمال نظريته وأعتبر أن المسئول عن ذلك هو ولع توينبى بأن يقتطف بشكل واسع من الإنجيل، والأساطير، والشعر، وثانى هذه المآخذ هو ما أظهره توينبى من جهل أو إهمال متعمد لعديد من الأعمال الاجتماعية الهامة والتى تناولت الموضوعات التى لم يعالجها توينبى بشكل أعمق من تلك التى اعتمد توينبى عليها، فليس هناك ذكر لأسماء مثل تارد أو دوركايم أو ماكس وبراوبارثيو. وقد كان من نتيجة هذا الإهمال أن كتب توينبى مئات الصفحات حول القضايا، درست فى مثل هذه الأعمال بشكل أكثر شمولا وأفضل مما فعل توينبى، فمثلا كان حديثه عن الخيلاء Hybris أحد النقاط الجوهرية فى نظريته والتى كرس لها العديد من الصفحات، والقارئ الذى قرأ تارد، فضلا عن العديد من الأبحاث التى ظهرت بعده، لا يحصل

من تحليل توينبى لأى شئ جديد. وبالمثل فقد خصص توينبى مئات الصفحات فى الأجزاء الأولى للبحث عن تأثير البيئة الجغرافية على المجتمعات البشرية والحضارات، ورغم هذا فإنه لم يضف أى جديد إلى المعرفة المتوفرة فى هذا الميدان. والمأخذ الثالث على دراسة التاريخ ، فإن الأستاذ سوركن يراها فى أن معرفة توينبى بتاريخ الحضارات الست والعشرين التى تناولها جاءت غير متساوية بشكل كبير، فهى مختارة فى حقل الحضارة الهيلينية (اليونانية والرومانية)، وهى أقل بكثير فى حقل الحضارات الأخرى. وتبدو الثغرة الرابعة فى دراسة توينبى فى ضآلة معرفته حول ظواهر مثل القيم والفلسفة والعلم والقانون وغيرها مما تعرض له توينبى ، كما تبدو الاستنتاجات التى يخرج بها عن هذه الظواهر مصطنعه تصدر عن شخص هاو، ونفس الشىء ينطبق على عدة ميادين يقدم فيها توينبى أحكاما قاطعة.

أما المأخذ الخامس الذى يسجله سوركين على توينبى فهو فيما يصف به حضاراته من صفات واتجاهات يعتبر أنها غلبت وميزت هذه الحضارات متأثرا فى هذا بسنبجلر، فالحضارة الهيلينية عند توينبى يسيطر عليها الاتجاهات الجمالية، والاتجاه الدينى على الحضارة الهندية، والتكنولوجى على الحضارة الغربية، (وإن كان لم يصف باقى الحضارات ويضعها وفقا لهذه الاتجاهات) ولا يعتقد الأستاذ سوركين أن فى اتجاه توينبى هذا. فالحضارة الغربية لم تظهر طابعها الرئيسى الذى وصفها به توينبى حتى القرن الثالث عشر بعد الميلاد، فمنذ القرن السادس حتى القرن الثانى عشر، كانت حركة الاختراعات العلمية والاكتشافات فى مستوى الصفر فى مثل هذه الحضارة، ومنذ القرن السادس حتى القرن الثالث عشر كانت هذه الحضارة دينية وربما دينية بشكل أكثر من الحضارة الهندوسية فى كثير من مراحل تاريخها، كذلك فإن الطابع الجمالى الذى يدعيه توينبى للحضارة الهيلينية لم يظهر قبل القرن السادس قبل الميلاد، كما أبدت هذه الحضارة طاقة علمية وتكنولوجية فى الفترة من ٦٠٠ - ٢٠٠ بعد الميلاد، من ناحية أخرى فإن الحضارة العربية (التى لم يركز توينبى على طابع مميز لها) قد أظهرت طاقة ضخمة على الاتجاه العلمى والتكنولوجى فى القرن ما بين ٨ - ١٣ وبأكثر مما أبدته الحضارة الغربية خلال هذه القرون ، وعلى هذا يخلص الأستاذ سوركين أن

اتجاه توينبى إلى إلحاق اتجاه غالب ومحدد لهذه الحضارة أو تلك هو شىء غير دقيق بل ومضلل.

ورغم هذه المآخذ والأخطاء التى يرصدها الأستاذ سوركين على "دراسة التاريخ"، إلا أنه قد اعتبر إنه فى عمل بمثل هذه الضخامة فإن، مثل هذا الأمر، يبدو شيئا لا مفر منه ولا يجب أن يعيب العمل ككل خاصة إذا كان أساسه الذهنى متينا، فإن مثل هذه المآخذ يجب أن لا ينظر إليها بأكثر من أنها لم يكن لها لزوم وتزيد عن حاجة العمل.

أما الأستاذ هانز مورجانتو Hans Morgenthau فقد خصص دراسة عنوانها: Tognbee and the Historical بدأها بما أورده أحد فلاسفة التاريخ، من أن هدف التاريخ هو أن لا يجعلنا حكماء ليوم واحد فقط، وإنما إلى الأبد ، فالتاريخ يفصح عن حكمته بما يقدمه من روايات ذات معنى لحياة وأعمال من جاءوا قبلنا من الرجال. وهذه الرواية تستمد معناها من الرابطة التى يقيمها بفكر الانتقائى والتقييمى للمؤرخ بين المادة التاريخية وبين اهتمامات الإنسان الدائمة". بهذا المعنى يعتبر مورجانتو أن توينبى قد أيقظ بعمق الخيال التاريخى من سباته العقيدى المتزمت، فلم يكن هدف توينبى أن يقدم رواية متماسكة للعملية التاريخية، وإنما كان هدفه فلسفيا أكثر منه تاريخيا، وكان يبحث عن القوانين الحاسمة فى ظهور وسقوط الحضارات.

ويعتبر مورجانتو أنه رغم أن هدف توينبى كان فلسفيا إلا أنه أدرك أنه لا يستطيع أن يعتمد على الفلسفة فى بحثه عن مستويات للتقييم على المراحل البيولوجية فى العملية التاريخية للمضادات ذلك إنه اعتقد أن عصرنا قد أفتقد الجرأة العقلية فى الاعتماد على الذات التى ما زالت تسمح لأمثال كومت وماركس بناء نظم فلسفية تدعى أنها تشرح القوانين التى يتعذر وقائعها التاريخ، غير أنه بدلا من ذلك تحول توينبى إلى الدين، حيث ادعى أن الدين وحده، يمكن أن ينقذ الحضارة الغربية. وقد توافق لجوء توينبى إلى الدين مع نمو حركة شعبية – خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية – تنشد الإنقاذ الدينى من شرور وأخطار العصر. غير أن الشعبية التى لقيتها نظرية توينبى فى اللجوء إلى الدين إنما تكشف ضعف ما

أنجزه. فتوينبى نفسه ليس لديه أوهام حول إمكان إحياء العقيدة الدينية المفتقدة، وهو لا يدعو للعودة إلى عقيدة دينية، معينة بقدر ما يدعو إلى إحياء عقيدة دينية يمكن أن تتأكد من أية عقيدة من العقائد القائمة فى خليط من عناصرها. وهكذا فإن تفضيل توينبى الشخصى يبدو أنه نوع من الانتقاء الثقافى أو الجمالى الذى يتقبل بعقل مفتوح كل ما هو متجانس وملائم فى الديانات التاريخية المختلفة.

غير أن مورجانتو لا يتفق كذلك مع تفضيل توينبى هذا إذ يعتبر أن التركيز على عقيدة دينية توفيقية يميل إلى طمس الفارق الحيوى لفهم المشكلة الدينية، والتى بدورها قد دعمت سوء الفهم الشعبى لما أراده توينبى. وقد نشأ سوء الفهم من الفارق بين الدين Religion والتدين أو روح التقوى Religiosity، واتصالاً بهذا المعنى الأخير، معنى التدين وروح التقوى، يؤيد مورجانتو أن معظم فشل العصر الحديث وعديد من إنجازاته ينبع من مصدر واحد وهو الافتقار إلى التدين وروح التقوى عند الإنسان المعاصر، فالإنسان المعاصر - كما يرى نفسه - قد أصبح كيانا مكتفيا بذاته يعلم ما يراه ويستطيع أن يفعل ما يشاء، وهو فى هذا قد خسر الوعى بأنه يعتمد على إرائه وقد تعلو على فهمه وسيطرته. غير أن مورجانتو وإن كان يوافق على ذلك، إلا أنه ينبه إلى أن تحذير الإنسان الحديث ضد تمجيده غير الدينى لذاته والذى هو يمضى ما تشوبه لنفسه شىء، والدعوة إلى نوع من التوفيق والانتقاء الدينى شىء آخر تمامًا.

ويتصور الأستاذ مورجانتو أنه إذا ما سألنا عما سيجعل حضارة ما تعيش مما سيساعد الحضارة الغربية بوجه خاص على البقاء فإن توينبى سيجيب : عودوا إلى الدين بإحياء عقيدتكم الدينية. ويعتبر مورجانتو أن هذه الإجابة معرضة للشك، وهو شك ينشأ لا من التخمين الميتافيزيقى وإنما من خبرة التاريخ نفسه، فهل ثمة شهادة تاريخية تظهر أن العصور الدينية تحتكر أوانها حتى بوجه خاص قيما حضارية بالمفهوم الشائع والمشترك لهذه القيم . وهل ليس هناك على العكس شهادة تاريخية قوية تؤيد القول إن ضعف العقيدة الدينية تتوافق مع ازدهار الحضارات بالشكل والمعنى الشائع والمشترك المفهوم لها، وينتهى مورجانتو إلى القول إنه إذا ما أعطينا للحضارة معناها العلمانى الشائع والمشترك فسوف يكون من الصعب أن

نشكك أنه منذ أفلاطون إلى كانت، ومن سوفولكليس إلى دوستويفسكى. ومن مايكل انجلو إلى رودين فإن إضعاف العقيدة الدينية وازدهار الحضارة لا يتوافقان فحسب فى الزمن ولكنهما يرتبطان بشكل عضوى كذلك. حقيقة أن الإنجازات العظيمة للحضارة تدين للخبرة الدينية ولكن ما هو أكثر من هذا أن إنجازات الحضارة المادية فيما يتعلق بالسيطرة العقلانية على الطبيعة والمجتمع إنما تدين بالكثير، وإن لم يكن بشكل شيء، للإنكار الحديث لكل من الدين والعقيدة الدينية وهو الإنكار الذى يفترض أن قدرات الإنسان لا حدود لها، وأن الإنسان قد أثبت فعلا ذلك ضمن الحدود التى اختارها بنفسه لإثبات ذلك.

وقد توقف بعض شراح توينبى عند الاهتمام الذى أبداه بالإسلام كدين وكحضارة، ولاحظوا أنه فى الوقت الذى لم يتحدث فيه بشكل محدد عن تأثير الهندوسية أو البوذية على المسيحية، فإنه قد خصص مقالاً خاصاً عن "الإسلام والغرب فى المستقبل "هذا الاهتمام من جانب توينبى بالإسلام هو الذى دفع بالأستاذ Eorth Hddueil لأن يخصص دراسة عن "مفهوم آرنولد توينبى لمستقبل الإسلام"، وتوضح هذه الدراسة مفهوم توينبى لهجوم الغرب على الإسلام على أنه جزء من عمل الغرب الضخم الذى يهدف إلى ضم كل البشرية فى مجتمع ضخم واحد، وهذه المواجهة الحالية للغرب مع الإسلام، والتى بدأت منذ القرن الماضى، هى أكثر حدة فى نشاط من غيرها على المواجهات، وفيها يقف الإسلام فى وضع سيىء. ويرد توينبى ذلك إلى أن الغرب المعاصر متفوق على الإسلام ليس فى السلاح فقط، وإنما فى أساليب الحياة الاقتصادية، وفوق كل شيء فى القوة الروحية التى تحقق وتحافظ على المظاهر الخارجية لما نسميه بالحضارة، ويوضح توينبى أن من يقف فى مثل هذا الموقف ليس أمامه – وفقا لسوابق تاريخية – غير بديلين للإستجابة لمثل هذا التحدى: فالذى يتعرض لمثل هذا الهجوم إما أن يستجيب له بشكل متعصب أو الاستجابة الفعالة له، والشكل الأول من الاستجابة يلجأ إليه من يرفض الاعتراف بأى شيء جديد وينطوى على نفسه فى مواجهة المجهول، وهو فى هذا توجيهه الغريزة فقط. أما البديل الثانى فى الرد على الضغوط والاستجابة لتحدى الغرب فهو يمثل الاستجابة الفعالة والتى تعتمد فى مواجهة الذى يتعرض للهجوم

لمن يهاجمه على أرضه وباساطيله وأسلحته، وهو فـي هذا ينظر إلـى الخطـر فـى عينيه مباشرة. وأول من اتبع البديل الثانى فى الإسلام كان محمد على باشا، وبينما لم ينجح السلطان العثمانى سليم الثالث فى إصلاحاته فإن تركيا الحديثـة قد واجهت البديل الثانى بتماسك يدعو للإعجاب حيث أخذت سواء فـى هيكـل الدولـة أو فـى مجتمعها بالفكر الغربـى. ومـع هذا فـإن توينبـى يعبر عـن شكه فـى هـذه التجربـة وفعاليتها فى النهاية، ويتساءل هل الوصول إلى هذه الغاية وأتباع هـذا البديـل كـان يستحق ما بذل من أجله من عذاب، وهل إقامة دولة أو أكثر على النمـوذج الغربـى يشكل حقا إثراء للحضارة، ويجيب توينبى بالنفى على هـذا السؤال ذلـك أن النجـاح الذى تحقق بإقامة الجمهورية التركية قد أفاد الأقلية الصغيرة جدا فقـط أمـا الأغلبيـة فليس لديهـا حتـى الأمـل فـى أن تصبـح عضـواً ولـو سـلبيا فـى الطبقـة الحاكمـة للحضـارة المقلدة.

أما الصورة التى صاغها توينبى لليهودية واليهود فـى "دراسـة التـاريخ"، فقد تعرض بسببها للنقد الحاد وخاصة من المؤرخين اليهود، إذ استخلصوا أن وجهـات نظر توينبى فى هذا الشأن تحكمها مفاهيم أربعة لافتة للنظر :

- أن اليهودية هى خبرة من الحفريات.
- أن التعصب الأعمى هو فى جوهره اختراع يهودى قدم للمسيحية والإسلام، وقد تعرضـت المسيحية للخيانـة، وضللـت نحـو التعصـب بـالتطرف وعـدم التسـامح اليهودى.
- إن إنشاء إسرائيل هو بالمعايير اليهودية نفسها، عمل من أعمال العقوق unpiety وعودة خطيرة لأشياء عفا عليها الزمن حتى بالمستويات اليهودية نفسها.

- أن الصراع العربى الإسرائيلى، إنما هو كارثة كبرى". يفوق فيـه السقوط اليهودى أخلاقيا "الحضيض الأخلاقى النازى".

غـير أن أهـم نقـد لتوينبـى وأكـثره حـدة فقـد جـاء مـن المـؤرخ H. R, Trevor - Roper الـذى ركـز هجومـه علـى توينبـى باعتبـاره عدوا للتقـاليد الليبرالية والعقلانية، واتهمه بأنه يدعـو بـل ورحـب بـاضمحلال الغـرب والحضـارة

الغربية، واعتبر أن توينبى "هو أساسا عدوا لليبرالية والعقلانية، وكل شيء" يدعو لحرية العقل البشرى، والروح البشرية هو كريه وبغيض بالنسبة له، وعنده أن عصر النهضة كان بداية الاضمحلال الذى لا رجعة فيه للغرب، وكل مظهر آخر للعقل البشرى هو حجر زاوية أخرى على الطريق إلى الحطام...". وذهب روبر إلى أن "نبوءات توينبى الكئيبة" بأن الغرب فى حالة اضمحلال قد ساهمت فى روح الهزيمة التى واجهت بها البلدان الغربية هتلر فى الثلاثينيات. ونسب لتوينبى الشغف بأن يرى الغرب وقد تحطم ولهذا "فإنه حتى عام ١٩٣٩ كان غير مبالى وأغمض عينيه عن التهديد الصادر عن ألمانيا النازية" ولأن توينبى يتوق إلى الرومانسية، وهزيمة الغرب فإنه يبدو وكأنه "يتطلع بسرور وارتياح خبيث لفناء حضارتنا ". وقد وجد روبر لدى توينبى استعدادا لأن يضحى بالمثل الغربية فى العدالة والحرية، والعقلانية، والفن والأدب الغربى، طالما بقيت المسيحية كجزء من دين يجمع كل الديانات : Cyncretize Religion الغربية تسلك طريقا خاطئا، وهى لا تعنى شيئا بالنسبة له، ولا يجب أن نهتم بها...". ويرفض Pieter Geyl تأكيدات توينبى بأنه يؤمن بالآراء الحرة ويعتبر المستقبل هو سؤال مفتوح، وأصر جيل أن تأكيدات توينبى هذه ليس لها أساس مثل ادعائه المتكرر أن تقييماته تصدر عن دراسة تجريبية Empircal وبأعتقاده أنه بالعودة إلى المسيحية يستطيع أن ينقذ الغرب، الأمر الذى هو علاج غير محتمل ، فى الوقت الذى يدين كل جهود الحضارة الغربية ويحكم عليها بالعقم، وهو فى الواقع حكم بالموت، وهو رغم نقده لسبنلجر، فإن نظام توينبى الفكرى والفلسفى تسوده حتمية مماثلة لحتمية سبنلجر.

هذا النقد خاصة من جانب روبر وجيل، وجد صدى عند نقاد أكثر حداثة ففى عام ١٩٦٨، أعلن Siolney Pollard " أن توينبى يعارض أساسا المذهب العقلى... وهو بشكل غريزى يعارض كل ما تدافع عنه الليبرالية، الحرية، والحق فى الاختلاف والتعدد، والشك فى السلطة، والاعتقاد فى قيم الحياة التى تأخذ بالأساليب العقلية، ومفاهيم أخلاقية تبررها شروط بشرية وليست أسطورية أو إلهيية . وعلى العكس فإن توينبى يفضل الشعور والحدس على التحليل، وإله واحد على مجتمع متعدد، وطريق محدود مرسوم على المبادرة البشرية ، والمعجزة على الإصلاح التدريجى".

أما الجانب الآخر فى منهج وتفكير توينبى الذى تعرض للنقد فهو مفهومه الدينى للتاريخ، وأخذه الإلهام من تشاؤم أوغسطين، وتصوف برجسون، فى ذلك اعتبر بعض نقاده أن توينبى أيا كانت نواياه - إنما يضعف الاحترام للعقل فى وقت يحتاج فيه العقل لكل مساعدة يستطيع المثقفون تقديمها، ذلك أنه إذا ما تأمل الأساس العقلانى للحضارة الغربية، فإنه من الأكثر احتمالا أن نشهد تكثيفاً للأساطير السياسية التى تقوى مشاعرنا البدائية، وانتشارا لأنماط سلوكية غير عقلانية أكثر مما سوف نشهد من إعادة إيقاظ القيم الروحية كما يريد توينبى.

كما اعتبر هذا الاتجاه الناقد لفكر توينبى الدينى أنه لا يقدم أساسا سليما للتعامل مع أزمة الغرب الراهنة أو مع مشكلات العالم فى عصر العالمية الجديد، فهل يمكن تحقيق تحول روحى فى وقت تصدعت فيه وجهة نظر الرجل الغربى الدينية للعالم وتقوضت المؤسسات الدينية، وحين أصبح وجود الله ذاته موضع شك؟ وحتى إذا كان، الدين مفيداً اجتماعيًا، أو يخفف من القلق النفسى، فهل يستطيع المثقفون الغربيون ذلك فى مناخ عقلى يصيغه العلم والشك والعودة إلى عالم لم يعودوا يقبلونه كشىء حقيقى؟.. ويواصل هذا الرأى الناقد لاتجاه توينبى الدينى تحفظاته بأن الثورة الدينية التى ينشد توينبى من خلالها" تحول الروح بعيدًا عن العالم، والجسد والشيطان إلى مملكة السماء" لا يمكن أن تتحقق من خلال الحب النبوى فقط، ذلك لأنه بدون طقوس الدين، والسلطة الدينية، يتلاشى الدين. والغرب الحديث لم يعد يتقبل سلطة الدين أو طقوسه، هذا فضلا عن أنه فى عصر ما بعد المسيحية العلمى التى تهاوت فيه النظرة الدينية للعالم، وأظهرت فيه المسيحية قدرة ضئيلة على تحويل الغربيين إلى عقيدة أسلافهم فإن توينبى كان يأمل فى قديس معاصر مثل القديس فرانسيس لكى يقود الغربيين العاصين والمتمردين ويعود بهم إلى حب الله، وهو أمل إنما يعبِّر عن روح التقوى والورع عند توينبى وليس عن الواقع. وقد اعتبر هؤلاء النقاد أن هذا الاتجاه عند توينبى يفسر لماذا كان توينبى فى أعماله الأخيرة مفتونًا بالديانات الشرقية ، فالشرق باعتباره أقل أخذا بالأساليب العلمية والصناعية ويميل تقليديا إلى التأمل الباطنى، قد يكون أكثر تقبلا للثورة الدينية من الغرب.

كذلك ينبه هؤلاء النقاد إلى الأثر العكسى لهذه النظرة الدينية، ذلك أن إعادة إيقاظ الدين يمكن أن لا تؤدى إلى إيقاظ القيم الروحية التى أرادها توينبى، وإنما إلى تكثيف العقيدة الأصولية، والتى يمكن أن يصاحبها سياسات اجتماعية رجعية ورغم النزعات القومية الضيقة، الأمر الذى سوف يعيق العقلية والنظرة العالمية التى تصورها وأرادها توينبى، وآثاره القومية التى كرهها، وإحباط التقدم الاجتماعى الذى دعا إليه.

ويخلص هذا الرأى إلى القول بأن التكامل المتزايد للعالم فى العصر الحديث لم يأت نتيجة للديانات ولكن للتجارة والعلوم والتكنولوجيا، وأنه من المشكوك فيه أن إحياء الدين سوف يسرع بتقدم العقلية والنظرة العالمية، أن الأصوليين الهنود، والمسلمين، والمسيحيين لديهم من العوامل المشتركة أقل من تلك التى تجمع بين العلماء والفنيين أيا كانت قوميتهم. فالعلم يتحدث لغة العقل العالمى، ورغم أن الديانات السماوية تعتقد فى مثل العالمية، إلا أن جذورها تكمن فى الخبرة التاريخية المحددة لحضارة معينة، وهى بهذا الشكل يمكن أن تكون عائقًا للوحدة العالمية أكثر من أن تكون عونا لها.

أما المؤرخ ألبرت حورانى فقد عالج فكر ودراسة توينبى عن التاريخ من زاوية مقولاتها الأولى التى اعتقد أنها غامضة بشكل لا علاج له، فمن الصعب أن تجد فى عمله تحديدا واضحا لما يعنيه بالحضارة ، ومثل هذا الافتقار إلى التحديد يفسر شيئا تحكيمًا فى قائمة توينبى عن الحضارات ، فمن بين الحضارات الواحدة والعشرين التى حددها توينبى، لماذا يوجد فيها ثمانية على الأقل فى الشرق الأقصى؟ ولماذا تتميز الحضارة اليابانية بين هذه الحضارات؟ فى الوقت الذى لا تتميز فيه الحضارة البريطانية بين حضارات الغرب؟ ولماذا تنقسم الحضارة الموحدة الواضحة للعالم الإسلامى إلى ثلاث حضارات : السورية، العربية، والإيرانية؟ ولماذا ينظر إلى الحضارة العثمانية "كحضارة مجهضة" بينما تعامل إمبراطوريات أخرى كمظاهر لبعض الحضارات التى تمتد فيما بعدها زمنيا؟.

كما لاحظ الأستاذ حورانى أنه بعد أن أثبت توينبى أن الحضارات هى الكيانات النهائية للتاريخ البشرى وأنهم جميعا تعرضوا لنفس القوى وأنهم جميعا

حتى الآن قد عانوا نفس المصير، فإنه مازال من الصواب أن نتساءل ما هى مكانة هذه "القوانين" ولماذا عاشت ، فهل هى مجرد مصادفة أن تنشأ الحضارات، وأن ثمة شيء فى طبيعة الإنسان يقود إلى ظهور وحدات بمثل هذا الحجم والنوع، وإلى الفصل بينها، وإلى ما تمر به كلٌ منها من نمو وانهيار، ثم بالموت الذى حل بها حتى الآن؟ ويقرر حورانى أن نظرية فى التاريخ لكى تقوم على أساس متين يجب أن تستند إلى نظرية عن الإنسان والكون، وفى الأجزاء الستة الأولى من دراسة توينبى فإن النظرية تفتقرإلى هذا الأساس رغم أنه ثمة إشارات على ذلك، ثمة اعتقاد واضح فى الحرية البشرية، وبأن عملية النمو والإنهيار، والتفكك يمكن أن تنقطع عند أى نقطة. ولكن ليس هناك تفسير واضح لماذا - رغم الحرية - يحدث هذا التكرار فى التاريخ، وإذا ما سأل المرء عن إيضاح لهذا الإيقاع بين الـ Yan أو السكون والـ Yen أو الحركة فإنه لا يحصل على إيضاح وإنما على وصف شعرى.

ويتساءل حورانى عما يمكن قوله عن طبيعة ونوعية هذه الرؤية للتاريخ؟ ويخلص إلى أنها نتائج خيال غريب وقوى تسيطر عليه أفكار ما، تستطيع أن تستمع إلى الأصداء التى تتردد من عالم لآخر وحيث يشوه الصوت الأصيل. ويجد حورانى أن من بين أكثر أجزاء دراسة توينبى إثارة للاهتمام هى تلك التى تتعامل مع عصر النهضة حيث تسيطر عليها ذكريات الحطام، وتبدى نوعا من الألفة الروحية باقتباس من فولنى Volney حول الشرق، وجيبون حول روما، وكما تتبدى فى هذه الأجزاء بوضوح المشاهد التى رآها وهو يتجول على الأقدام فى اليونان وهو مازال شابا فى الواحدة والعشرين، وهو ما كان نقطة البداية فى عملية التأمل الطويلة والتى نبع منها دراسته للتاريخ.

غير أن حورانى يدرك أنه وراء الأصداء والحطام تكمن رؤيا أخلاقية للتاريخ، فكل مفاهيم توينبى هى فى النهاية مفاهيم أخلاقية وأحكامًا أخلاقية تنتشر فى صفحاته، فثمة أفعال "لا يمكن غفرانها" ودوافع متشابهة ساخرة كما أن ثمة شخصيات تاريخية متهمة بالغباء الثقافى الفكرى والانحراف الأخلاقى، ولا يرى حورانى فى مثل هذه العبارات صدفة، إنها تعرب عن وجهة نظر توينبى الشاملة

للتاريخ، وما هو أكثر تحديدا، فإن دراسة توينبى تدور حول مفهوم الـ Hubris أو الخيلاء المدمرة للذات والتى تغرى الرجال فى لحظة الانتصار والسلطة والقوة، فالأقليات الخلاقة، والمؤسسات التى صنعتها تسقط بسهولة فى عبادة الذات، وهى إذ تفعل ذلك تخلق سبب فنائها ، ولكن إذا ما استطاعت مقاومة هذا الإغراء، أو حتى إذا ما سقطت فيه، فإنها تستطيع أن تعود إلى نفسها وتندم، وعندئذ يمكن أن تتجنب الفناء.

تلك هى رسالة دراسة توينبى للتاريخ كما تصورها حورانى ، إلا أنها كذلك تثير أكثر الأسئلة إلحاحا. فحتى لو تفادت حضارة ما طريق التحلل والفناء، فأى طريق آخر يمكن أن تسلكه؟ وإذا ما حققت التناسق وتقرير الذات، فلأى هدف إن كان ثمة هدف، تستطيع تحقيقه؟ هل يمكن أن يكون لها هدف فيما وراء ذاتها ، وفى النهاية ، هل يمكن أن يقال أكثر من أنها نشأت ونمت وماتت أو تفادت الموت؟ مثل هذه الأسئلة تكمن فقط تحت سطح الأجزاء الأولى من دراسة توينبى وبإشارات فقط حول الإجابة عليها. ومن وقت لآخر، ثمة إشارة إلى أن التاريخ البشرى ككل له معنى، فالإنسان فى ذاته له هدف، ولذلك يصبح معيار الحكم على الحضارات هو ما إذا كانت قد قربت الإنسان من هذا الهدف.

وإذا كان النقاد وزملاء توينبى من المؤرخين قد تعرضوا للجوانب الأساسية والموضوعية فى منهجه ودراسته للتاريخ ونظريته فى الحضارات، فقد تعرضوا كذلك لجوانب شخصيته العامة. فقد اعتبر بعضهم، وبشكل خاص بول جونسون، أنه فى الأمور الشخصية كان سلوك توينبى نسيجًا من التناقضات ، فرغم أنه هاجم الجشع، وأدان مادية المدنية الحديثة، إلا أنه كان جشعا بشكل مرضى فى أمور المال، ورغم أنه نعى على البشر حب الذات ، إلا أنه لن يتردد أبدا فى أتباع أهدافه الخاصة بغض النظر تمامًا عن أهداف ومصالح من يحيطون به. وفى الوقت الذى كان يبتهج بمرافقة العظماء والأقوياء من ذوى النفوذ إلا أنه كان يشعر بالغربة بينهم. وقد كان خجولا، وغالبا ما يبدو معتذرا، ومع هذا فقد كان يجاهد لكى يذعن الناس له، وغالبا ما حقق ذلك. غير أن من أنتقدوا فيه هذه الجوانب ونقاط ضعفه أعتبروا أنها هى التى جعلته يبدو إنسانا، فى الوقت الذى جعلته ذاكرته القوية، وطاقته التى لا تكل عن العمل أقرب إلى سوبر مان.

بعد هذا التقييم لفسلفة توينبى فى التاريخ، وبعد أن هدأت المناقشات والخلافات التى أحاطت بدراسته عند ظهورها واكتمالها، إلى أى حد يبدو ما أنجزه توينبى هامًا، وما مدى مساهمته فى الدراسة التاريخية، وكيف سيراه ويقيمه مؤرخو المستقبل؟ بشكل يتفق مع شخصيته، كان تقدير توينبى الشخصى لحياته متواضعا، فحين سئل عام ١٩٦٥ كيف يريد أن يذكره التاريخ أجاب : .... مثل من حاول أن يرى الصورة فى مجموعها ... وليس من مجرد وجهة النظر الغربية"، وبعد ذلك بسنوات أجاب على سؤال أحد الصحفيين :

".. أود أن أعتقد أنى قد فعلت عملا مفيدًا فى حق الشعوب الغربية وأن يفكروا فى العالم ككل"، وبعبارة أكثر دقة ذكر لمراسل آخر "كانت رغبتى دائما أن أرى الجانب الآخر من القمر مضيفًا أنه تعلم منذ طفولته أن يتساءل عن الشعوب التى تُركت خارج التاريخ التقليدى مثل : الفرس، والقرطاجيين، والمسلمين وما شابههم. مثل هذا الاهتمام، وتوسيع نطاق - التعاطف والمعرفة فيما وراء الحدود التى رسمها مؤرخون آخرون، كان من الإسهامات الرئيسية المؤكدة التى قدمها توينبى لدراسة التاريخ. ولم يكن ذلك فى الواقع بالمساهمة الضئيلة، ذلك أنه قبل توينبى، وقبل أن يوسع من منظورنا للتاريخ، كان التاريخ كما يدرس فى الجامعات والمدارس الغربية لا يتعامل إلا مع الأوروبيين القدماء والعصور الوسطى والحديثة ومن انحدروا منهم ومن سلالاتهم فيما وراء البحار، ولم تدخل شعوبا أخرى إلى المسرح إلا عندما اكتشفت أو تمدنت أو غزاها الأوروبيين. وكان كل شخص يعلم أن الهند، والصين والإسلام كان لهما تاريخ طويل، ولكن هذه كانت ميادين خاصة فى البحث لا ينظر إليها المؤرخون وإنما كانت تترك لعلماء اللغات ودارسى الأديان المقارنة. حقيقة أن ثمة عقولا شجاعة قبل توينبى قد حاولت أن تربط بين التاريخ الأوروبى وغير الأوروبى، من أمثال هؤلاء هـ.ج ويلز، ولكن كتابه: Outline of History الذى نشر عام ١٩٢٠، قد كتبه فى أقل من عامين، وكما ذكر ويلز نفسه فإن معظم معلوماته قد استمدها من دائرة المعارف البريطانية، وزيادة على ذلك، فقد كان التاريخ الذى قدمه ويلز هو تاريخ التقدم، وكما نشأ فى معظم أجزائه فى أوربا ولم تلعب فيه الشعوب الأخرى إلا دورا هامشيا وفى القرون التى سبقت عام ١٥٠٠، الأمر الذى كان تشويها ضخماً. ولذلك فإن جهود ويلز لإصلاح أخطاء التقاليد الأكاديمية فى الدراسة التاريخية لم تفعل الكثير فى تعدى الحدود القديمة. كذلك كان المفكر الألمانى سبنجلر الذى جاء أيضا مثل ويلز من خارج

المؤسسة الأكاديمية، أكثر علما من ويلز، وكانت رؤيته للمدنيات والحضارات غير الأوروبية هي التي قدمت لتوينبي مفتاحا أساسياً في بناء دراسته للتاريخ، كما أن سبنجلر قد عامل الحضارة العربية وبعض المدنيات غير الأوروبية كحضارات متساوية، الأمر الذي فشل فيه ويلز، كما كان سبنجلر هو الذي أحيا تقليدا للقرن التاسع عشر ونظر إلى حكماء الصين وغيرهم من حكماء الشرق كأقران وربما متفوقين على أقرانهم الأوروبيين. غير أن ما يميز توينبي عن هذه المحاولات هو أن علمه كان أغزر وأكثر استيعاباً ، كما أن ولعه بالتفاصيل أضيء بالمقارنات المدهشة عبر الزمان والمكان، وللذلك كان توينبي، أكثر من أي مؤرخ آخر، قادرا على أن يدخل في وعي قسم كبير من قراء العالم، الحقيقة البسيطة أن الآسيويين والأفريقيين، وهنود أمريكا الحمر Amerindians وحتى شعوب خاصة من الإسكيمو لهم تاريخ مستقل عن تاريخ الأوروبيين. ولذلك كانت رؤية التاريخ البشري من منظور أوسع من وجهة النظر الغربية هي مساهمته الكبرى الرئيسية في تقاليد المعرفة، وما يؤكد حقه الدائم في الشهرة والسمعة العالمية.

ويعتقد من أدركوا مساهمة توينبي أنها قد ازدادت قيمة خاصة بعد أن اتجه معظم المؤرخين بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن ظهرت بعض جوانب القصور التي لا تنكر فيالإطار الذي وضعه توينبي لتطور الحضارات صعودا وهبوطًا، اتجهوا لأن يرفضوا رؤية توينبي ككل وكذلك تفاصيل تفسيراته، وبدلا من أن يحاولوا إيجاد إطار أكثر ملاءمة ودقة للتاريخ البشري في مجموعة، اتجه معظمهم في الاتجاه العكسي بأن طوروا بشكل متزايد بحوثًا متخصصة وغامضة عن هذا التاريخ، وكان من التناقض أن يحدث هذا في عصر يكتسب التداخل والتفاعل بين أجزاء البشرية المختلفة أهمية أكثر وأكثر كل عام، وبشكل يصبح فيه إنكار الطابع العالمي للتاريخ في الدوائر الأكاديمية اتجاها سخيفا، فما يريد قراء المستقبل أن يعلموه، إذ ما كانوا سوف يبحرون بذكاء في عالمهم، هو كيف تعاملت وتفاعلت الشعوب والحضارات في زمن مضى.

وأخيرا كيف سينظر مؤرخو المستقبل إلى توينبي ، وهل ستزداد أو يتناقص الاهتمام حول دراسته عن التاريخ وأهميتها ؟

يعتبر أحدث شراح توينبي William Mcneill أن عمل توينبي سيظل دائما تعبيرا عميقا عن العذاب والقلق الذي حل بالغرب في القرن العشرين ، وسوف يثني

مؤرخو المستقبل على توينبى لنفاذ بصيرتـه ونظراتـه المضيئـة، وثـراء المعلومـات التى قدمها، كما سوف يظـل فـى رصيـد توينبـى محاولتـه تقديم تـاريخ للعـالم كلـه، وتأكيده، قيمة كل الحضارات العالمية، ورفضه لفكرة الغرب فى التركيز على ذاتـه واعتباره أنه أسمى من غيره من الأجناس.

غير أن الاعتراف بإسهام توينبى هذا سوف يعتمـد فـى نظـر شـراح آخريـن على ما سيفعله المؤرخون وغيرهم من المثقفين فى المسـتقبل بتـاريخ العـالم، وعمـا إذا كانوا سوف ينظرون إلى التاريخ البشرى المتعدد الوجوه، كما فعل توينبى ككـل فى مجموعه، فإذا ما فعلوا هذا، وأكثر منه إذا ما أصبح كوكبنا متحدا، فسوف يذكر توينبى كرائد للوحدة العالمية، وكما عبر هـانز كـون Hans Khon فسيكون فضـل توينبى الدائم هو تأكيده على جوهر الوحدة البشرية.

كذلك سوف يستحق توينبى الثنـاء علـى جرأتـه وامتـداد أفقـه، وإلقائـه نظـرة بانورامية على التاريخ فى عصر تردد فيه المؤرخون فى أن يغامروا خارج نطـاق فروع تخصصـهم، وكما عبر William Mcneill فإن دراسة توينبى للتاريخ قدمـت نظرات نافذة بإلقائه نظرات واسعة على الماضى، الأمر الذى لم يكن يتحقق بمجـرد تمحيص أجزاء منفصلة من التاريخ، ولم تكن بذلك تقدم إلا مجرد صفحات من هـذا التـاريخ، ولكـن توينبـى بخيالـه الـتركيبى Synthetic imagination واسـتبصاره لعلاقات جديدة، جعل منه مؤرخًا عظيمًا حقا، وسيفرض على المؤرخين أن يقدمـوا تصورا شاملاً للتاريخ يحاول أن يستخرج معنى من العناصر التـى تشـكل التـاريخ البشرى بشكل عام والتاريخ الغربى بوجه خاص.

وربما كانت القيمة الرئيسية التى ستذكر لجهـد توينبـى هـو أنـه أجبرنـا علـى إعادة تقييم طبيعة المعنى الأساسى لتقاليد عصر التنوير، وتنبيهه إلى الأهمية والقـوة الدائمة للجانب غير العقلانى فى الشـئون البشـرية. فقد ذكـر توينبـى الفكر الغربـى بوجه خاص، إن العقل النظرى ليس هو المكون الوحيـد للحضـارة الغربيـة، فهنـاك المكون الدينى. بالنسبة لسقراط (العقل اليونانى). فإن معرفة الإنسان لنفسه تعنى أن عقل الإنسان وإرادته شىء مسـتقل بذاتـه، وأن العقـل البشـرى لا يعتمـد علـى قـوى خارج ذاته للدفاع عن القيم وتوجيه سلوكه. أما الدين فهـو يمثـل وجهـة نظـر بديلـة للعالم، فهو يعلم أن الإنسان لا يستطيع من خلال العقل فقط أن يصل إلى مستويات أخلاقية ولا يستطيع أن يعرف نفسه بشـكل كـامل ، وأن سـبب الرذيلـة، والمعانـاة ،

والحزن، هو انفصال الإنسان عن الله ، وأن علاج البشرية المتوعكة هو التوحد والاتصال مع الله، وقد حذر توينبى بنى جنسه الغربيين أن أعتبار ذلك جهل وخرافة يعنى أن تسيء بشكل كامل فهم القوة الصلبة للجانب غير العقلانى فى الحياة البشرية، وذكرهم بأن الطبيعة البشرية سوف تقاوم إقامة الحياة كلية على أساس عقلى، وهى لن ترفض أى تفسير قائم على الأسطورة أو تجعل من المعرفة الموضوعية أساس كل عقيدة، وتوقع غير ذلك يعنى إساءة قراءة التاريخ والمبالغة فى تبسيط الوجود البشرى.

ويحثنا توينبى على أن نسأل إلى أين يأخذنا العلم، ويحذر مجتمعه الغربى من أن تكنولوجيته هى مثلما عبر Jacque Ellat تمثل عقلانية مفترسة، فالإنسان الفاوستى فى تصميمه على البحث عن الحقيقة وإخضاع الطبيعة قد صاغ عالما مصطنعا من أجل حاجات متخيلة، وصنع تكنولوجيا تدمر من صنعها، وبيروقراطية تستطيع تجريده من شخصيته، وتدمر الكرة الأرضية. وشأن رومانسى القرن التاسع عشر، انتقد توينبى الفنيين لتحويل الإنسان إلى آلة لا روح لها، والطبيعة النابضة بالحياة إلى أدوات لا حياة فيها . ومثله مثل المناصرين للديانات الشرقية، اتهم توينبى الغربيين واتجاههم نحو الطبيعة والنظر إليها كشىء أعطاه الله للإنسان لكى يستغله، وبهذه النظرة نهبوا الطبيعة ولوثوها، وقد كان أبلغ ما أوصى به توينبى الإنسان الغربى الذى سيطرت عليه المادية إن الإنسان يستطيع أن يضمن حياة راقية إذا ما كبح جماح جشعه وطمعه واحترم الحياة والطبيعة.

وقد طالبنا توينبى أن نجد معنى فيما يعتبره الكثيرون عالما بلا معنى، وحذرنا من أن العلم وحده لا يستطيع أن يقدم لنا هذا المعنى. ولا يستطيع أن يستوعب الحياة بأكملها، وحذرنا من أن الأساس الوحيد للحضارة ليس هو السيطرة على الطبيعة ولكن سيطرته الأخلاقية على طبيعته الخاصة ونوعية علاقاته مع أقرانه من البشر. وقد أصر توينبى على أن أمراض المجتمع الحديث لا يمكن علاجها من خلال تغييرات فى منظماتها ومؤسساتها فقط، فالبشرية عنده تحتاج تغييرا فى القلب واتجاها روحيا أفضل ، وبالنسبة لحضارة غربية متعثرة حذر بشكل أكثر من أن الحضارة تنهار من داخلها، ومن فشل القيادة فيها، والافتقار إلى الحماسة والحيوية، فإذا كان للبشرية أن تبقى فإنها يجب أن تبحث عن مكسب يلهمها ويقودها إلى الحياة السليمة المتكاملة أكثر من التركيز على المكاسب المادية.

وقد رأينا كيف أن جانبا من النقد العنيف الذى وجه إلى فلسفة توينبى وبالذات فى تحليله للحضارة الغربية المعاصرة ، هو ذلك الذى اتهمه بإشاعة اليأس وبالانهزامية، بل وجدنا من يتهمه بأنه يود أن يشهد إنهيار الحضارة الغربية، إلا أنه فى الواقع، وفى الوقت الذى لم تبهره إنجازات هذه الحضارة، ولم تصرفه عن جوانب الضعف فيها، نجده يعيب على من يستسلمون لليأس أمام هذه الثغرات التى تهدد الحضارة الغربية وأصر على "إننا يجب أن نناضل لكى نكسب معركة الحياة رغم أنه ليس لدينا ضمانات، إننا سوف نفعل ذلك". كما لم يكن خاليا من الأمل بالنسبة للحضارة الغربية فقد أكد على "أننا يجب أن لا نكون انهزاميين ، سلبيين فى رد فعلنا تجاه الشرور الراهنة التى تهدد بقاء البشرية، فإذا ما كانت هذه الشرور قد تسببت فيها قوى أبعد من الإرادة البشرية، فإن الاستسلام والرضوخ يجب أن لا يكون هو الطريق الوحيد المفتوح أمامنا. ومع هذا فإن شرورنا الحالية هى من صنع الإنسان ويجب أن يعالجها الإنسان" كذلك كان توينبى "مقتنعا بأنه من العار، وبما سوف يحط من معنوياتنا، أن نسمح بتدمير أنفسنا برفضنا أن نبذل جهدا هو من الوضوح فى نطاق قدرتنا وأنه سوف ينقذنا إذا كنا مستعدين وراغبين فى أن نبذل هذا الجهد".

غير أنه إذا كان مؤرخو المستقبل أو بعضهم سوف ينصفون توينبى ولن يروا فيه كما رأى بعض معاصريه عدوا للعقل والحرية، إلا أنهم لن يتجاهلوا أن توينبى قد أشاع الضباب حول الاتجاهات الجوهرية للحضارة الغربية وشكك فى تقاليدها العقلية والليبرالية ، كما أبدى اهتماما ضئيلا، وفى بعض الأحيان استخفافا بإنجازات الغرب وما تعتبزه الحضارة الغربية مساهماتها الرئيسية مثل دراسة الطبيعة، والضمانات القانونية للفرد، والحكومية البرلمانية، والتسامح الدينى ، والحرية الفكرية إلا أن توينبى لم ير اختلافا فى هذا عما ادعته حضارات سابقة لم تنجح فى النهاية :

"حين أسأل زملائى الغربيين ما الذى يرمز إليه ويدافع عنه الغرب، ويأتينى الرد كما هو العادة دائما بأنه يمثل العدالة ، والحرية الإنسانية، فإنى أسأل بدورى عما إذا كانت أى حضارة عرفها التاريخ المكتوب لم تدافع أيضاً عن نفس الفضائل، وهى بالتأكيد الفضائل التى شعر كل البشر أنهم مكرهين على أن يعبروا عن ولائهم لها، إلا أن أيا منهم لم ينجح فى الوفاء بذلك".

المصادر

اولا: من أعمال أرنولد توينبى:-

-"A study of history". the new one volume edition, thmes and Hudson, 1972

-"Experiences" oxford university press, 1969.

-"Surviving the future" oxford university press 1971.

-"Civilization on trail", oxford university press, 1948.

-"The world and the west", oxford university press, 1959.

-"An historian Approach to religion", oxford university press,1956.

-"The Toymbee- IkeDa dialogue: man himself must choose.

ثانيا: أعمال عن أرنولد توينبى:_

-McNeill.william, "Arnold Toynbee; A life", oxford university press,1989.

-Geyl, pieter, "Depates with historians" New york, Meridian books,1958.

-Hourani, Albert "A vision of history, new eastern and other essays", khayates, beirut, 1961.

-Dawson, christopher, "Dynamics of word histroy" new york, sheed and word,1956.

-Mantagu, M.F. Ashley, ed., "Toynbee and histORY porter sargent, 1956.:

راجع بوجه خاص فى هذا العمل :

-Pieter Geyl, "Toynbee's system of civilization".

-H. Mitchell "Herr spengler and Mr. Toynbee".

-Hens Morgenthau "Toynbee and the historical imagination".

-Winerrout , kemmeth,"Arnold Toynbee, the Ecumenical vision", twayne publicatisms.

-Toynbee, philip. "Companing Notes, A dialogue berwee generation".

-Peper, chirstian, "An historian conscience. The correspondence of Arnold Toynbee and columBia cary-Elwes.."Boston: Beacon, 1986.

-Perry, Marvin, "Arnold Toynbee and the crisis of the west" Lanhan, 1982.

السفير الدكتور السيد أمين شلبى

أولاً :

- حصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة ١٩٨٠.

ثانياً :

- التحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٦١.
- ساهم فى تأسيس معهد الدراسات الدبلوماسية عند إنشائه عام ١٩٦٦، وعمل فى إدارته حتى عام ١٩٦٩، ثم نائبا لمديره (١٩٨٦ ـ ١٩٨٨).
- وعمل فى سفارات مصر فى: براج. بلجراد . موسكو. لاجوس، ووزيرا مفوضًا فى سفارة مصر فى واشنطن (١٩٨٢ ـ ١٩٨٦)، ثم سفيرا لمصر فى النرويج (١٩٩٠ – ١٩٩٤). حاصل على وسام الاستحقاق النرويجى.
- عمل مديراً لإدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية (١٩٩٤ ـ ١٩٩٦).
- عضو المجلس الأعلى للثقافة (لجنة العلوم السياسية).

صدر له :

١ ـ التنظيم الدولى فى مفترق الطرق.

٢ ـ هنرى كيسنجر. حياته وفكره. الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٦.

٣ ـ "From % com fromtation to peacful coexistence" رسالة غير منشورة مقدمة إلى جامعة اكسفورد، ١٩٧٦.

٤ ـ الوفاق الأمريكى السوفيتى ١٩٦٣ ـ ١٩٧٦ (الهيئة العامة للكتاب)، ١٩٨٠.

٥ ـ قراءة جديدة للحرب الباردة. دار المعارف، ١٩٨٣.

٦ ـ الدبلوماسية المعاصرة. عالم الكتب، ١٩٨٩، طبعة ثانية، ١٩٩٨.

٧ ـ من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولى جديد (الهيئة العامة للكتاب)، ١٩٩٦.

٨ ـ العلاقات الأمريكية / المصرية ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦ (مترجم)، مكتبة مدبولى، ١٩٩٦.

٩ ـ ما بعد الحرب الباردة: قضايا وإشكاليات. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. الأهرام، ١٩٩٧.

١٠ ـ الصين وروسيا: من الخصومة إلى المشاركة الاستراتيجية. مركز الدراسات الآسيوية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة، ١٩٩٨.

١١ ـ جورج كينان: الدبلوماسى المؤرخ. الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧

١٢ ـ حوارات المستقبل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨.

١٣ ـ داج همرشولد: حياته وفكره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

ـ نشر العديد من الدراسات والمقالات فى المجلات والدوريات المتخصصة فى مصر والخارج.

كما شارك فى ندوات ومؤتمرات مصرية وأجنبية، وحاضر فى: معهد الدراسات الدبلوماسية، وأكاديمية ناصر العسكرية، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

الفهرس